وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

ذنب: الذَنْب يُستعمل في كل فعلٍ يُستَوخَم عُقباه. (المفردات)

التفسير: بذكر هذه الواقعة قد لفت الله تعالى الأنظار إلى أنه تعالى ما دام قد هيأ الأسباب لهداية قوم فرعون فكيف لا يهيئها لأهل مكة، خاصة وأن إبراهيم كان قد دعا لهم بينما لم يكن لقوم فرعون أي دعاء من قبل أي نبي. والدعاء الذي قام به إبراهيم لأهل مكة هو: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠). فما دام الله تعالى قد بعث موسى عليه السلام لهداية قوم فرعون بدون أي دعاء سابق في حقهم، فلم لا يبعث الله لهداية أهل مكة نبيًا خاصة وهناك هذا الدعاء العظيم في حقهم؟ ثم هناك وعد إلهي لإبراهيم عليه السلام بأنه سيبارك في إسماعيل ويكثّره ويجعله

أمة كبيرة (التكوين ١٧: ٢٠). فلا غرابة في مجيء محمد (ﷺ)، وإنما الغرابة أن لا يهيئ الله تعالى أسباب الهداية لهؤلاء القوم ويذهب دعاء إبراهيم سدى.

ثم نبّه الله تعالى بذكر موسى اليهود أيضًا إذ كانوا يؤمنون بكتاب موسى وكانوا على علم بوجود نبوءة فيه تعلن: "أقيمُ لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلَك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي" (التثنية ١٨: ١٨-٢٠). ألم يكن لزامًا بحسب هذه النبوءة أن يُبعث بعد موسى في بني إسماعيل إخوةِ بني إسرائيل نبي مثيلٌ لموسى.. أي يكون هو الآخر صاحب شرع جديد مثل موسى؟

هذا، وتؤكد هذه النبوءة أيضًا أن ذلك النبي الموعود كلما يقرأ على الناس كلام الله تعالى يقرأه باسمه تعالى. وبالفعل لا توجد في القرآن الكريم سورة لا تبدأ بسم الله تعالى. إن كل سورة قرآنية تبدأ بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، الأمر الذي يُدين كلَّ يهودي وكلَّ مسيحي أنه لِمَ لا يصدّق النبيَّ الذي كلما قرأ كلام الله على الناس أعلن - كما أنبأ موسى - أنه يقرأه عليهم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومع ذلك لا يعاقبه الله تعالى؟

باختصار، قد ذكر الله تعالى هنا موسى عليه السلام تنبيهًا لأهل مكة إلى دعاء إبراهيم لأهلها، وتذكيرًا لليهود والنصارى بالنبوءة الواردة في التوراة، فنصحهم أن يدركوا عظمة ذلك الدعاء وتلك النبوءة، فلا يكفروا بمحمد رسول الله (ﷺ)، كي لا يحل بهم غضب الله كما حل بفرعون حين كفر بموسى.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قومَ فرعونَ﴾ فهو بيان بأن موسى عليه السلام إنما بُعث إلى فرعون لينجي بني إسرائيل من حياة الرق والعبودية، فيقول لفرعونَ أن يسمح لبني إسرائيل بالذهاب معه ولا يحول دون المشيئة الإلهية. وبالفعل لما خرج بهم موسى عليه السلام من مصر لم تبق له أية علاقة مع المصريين، بل ارتكز جلّ اهتمامه على بني إسرائيل الذين بُعث لهدايتهم ورقيهم.

كان هؤلاء القوم يعيشون بين المصريين و لم يكن هناك سبيل لتوجيه الخطاب إليهم ونفخ الروح الدينية فيهم بشكل مباشر منفصل عن المصريين، لذا جعل الله تعالى فرعون وقومه أيضًا شركاء في الدعوة التي وجهها موسى عليه السلام إلى قومه، فقام بتبليغ رسالة الله إلى فرعون وقومه بشكل مكثف وأقام عليهم الحجة بآيات عديدة متواترة. ولكن بعد خروج بني إسرائيل من مصر لم تعدْ لموسى عليه السلام أي صلة بالمصريين حيث كان مبعوثًا لهداية بني إسرائيل أساسًا، أما رسولنا ﷺ فلم تنقطع صلة عن أهل مكة بعد هجرته إلى المدينة، بل ظل يسعى لهدايتهم باستمرار، الأمر الذي يشكّل دليلا ساطعًا على سموّ درجته وعلوّ مكانته ﷺ.

أما قوله تعالى ﴿أَلاَ يَتَّقُونَ﴾، فبيّن به أن إقامة التقوى أهمّ هدف من بعثة الأنبياء. ولكن الناس يخطئون عادة فيعدّون الصلاح والتقوى شيئًا واحدًا، مع أن الصلاح يعني ذلك العمل الصالح الذي قد قمنا به أو نقوم، أما التقوى فالمراد منه بلوغ المرء درجة حيث لا يتولد في قلبه إلا مشاعر طاهرة وطيبة، لأن المشاعر منبعها القلب وإن كان ظهورها يتم عبر أعصاب الدماغ.

لم يزل العلماء على مر العصور في نقاش دائم حول منبع الروح الإنسانية، فزعموا أن منبعها الدماغ لا القلب، ولهذا السبب لم يستطيعوا استيعاب حقيقة الروح. مع أن الواقع أن منبع الروح هو القلب كما هو ظاهر من تعاليم الأنبياء ورؤاهم وكشوفهم. بيد أن الدماغ لما كان منبت الأعصاب فهو الذي يشعر بالعلوم القلبية ويستفيد من معارف القلب الخفية؛ ومن أجل ذلك قد اعتبر الله تعالى القلب مكان الحياة لا الدماغ. والظاهر أن الروح ستكون وثيقة الصلة بالعضو الأهم في البدن الإنساني والذي عملُه أبرز من الأعضاء الأخرى، وهو القلب لا الدماغ. فمثلاً لو توقفت حركة القلب لثانية واحدة لمات الإنسان فورًا، ولكن لو حصل عطلٌ في دماغ المرء فلا شك أن علومه تصبح في غطاء لكون الدماغ يدرك العلوم القلبية إلا أنه لا يموت بالضرورة. إذًا، فالدماغ إنما هو بمثابة الخادم، أما القلب فهو المركز الحقيقي الذي يُنـــزل الله عليه أنواره.

وسواء أصدّقَ المرء الفلاسفةَ، فاعتبر الدماغ منبع التدبر والفكر والأخلاق الفاضلة، أو اعتبر القلبَ هو منبع العقل والمعرفة وأن لا علاقة للدماغ بنشوء العلوم والمعارف، فاستعمل لفظ المشاعر والأفكار بدلاً من القلب والدماغ، إلا أنه لا بد له في كل حال من تطهير شيئين: أوّلهما الأفكار، وثانيهما المشاعر اللطيفة. وتطهير الأفكار – الذي يسمَّى التنوير بالعربية – يتم بطهارة الدماغ. والمراد من التنوير أن يتولد في المرء نور يؤدي إلى نشوء الأفكار الصحيحة فيه دائمًا. وكما أن الصحة نوعان: أحدهما أن يكون المرء معافى من المرض الآن، والثاني أن يظل معافى من المرض في المستقبل أيضًا، كذلك فإن التنوير اسم لذلك الإصلاح الذي يؤدي إلى نشوء الأفكار السليمة في المستقبل دائمًا. ومفهوم التنوير بالنسبة إلى الدماغ، هو نفسه مفهوم التقوى بالنسبة للقلب.. أي كما أن تولُّد الفكرة الصحيحة في بعض الأحيان لا يعني التنوير، وإنما التنوير أن تنشأ عند المرء ملَكةٌ بحيث لا تتولد فيه إلا الأفكار السليمة دائمًا، كذلك فإن التقوى ليس اسمًا لقيام المرء بعمل حسن واحد أو أكثر، بل المراد منه بلوغ المرء درجة بحيث لا تتولد فيه إلا المشاعر الطيبة الطاهرة. وهذا المعنى يدعمه ذلك الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: إن شيطاني قد أسلمَ (مسلم: كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان).. أي لا تتولد في قلبي إلا أفكار طيبة طاهرة.

مجمل القول إن لفظ "التنوير" يُستعمل للأفكار ولفظ "التقوى" للعواطف والمشاعر، ولا يكون المرء في مأمن من السيئة إلا إذا تيسر له تنوير الأفكار وتقوى القلب. وقد بين الله تعالى بقوله ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أن موسى جاء قوم فرعون برسالة تقوى الله، وكانت الغاية العظمى من بعثته أن يصلحهم من خلال الدعاء والتبليغ والوعظ إصلاحًا لا يقوّم أفكارهم ومشاعرهم فقط، بل يولّد فيهم ملَكةً بحيث لا تنشأ في دماغهم بعد ذلك إلا الأفكار الطاهرة، ولا في قلوبهم إلا المشاعر الطيبة. وهذا هو الأمر الذي لم يزل الأنبياء كلهم يركّزون عليه، وقد ركّز عليه الإسلام تركيزًا كبيرًا، لأن المعارف الروحانية تنـــزل من عند الله على القلوب، وإذا لم يكن قلب المرء طاهرًا ظل محرومًا من الفيوض الربانية.

ولما أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.. وهذا لا يعني أنه عليه السلام كان يجهل أن الناس منذ القدم يكفرون بمن يبعثه الله إليهم، بل المعنى أنه عليه السلام كان يعلم أن جميع الأمم التي كفرت برسلها قد هلكت، فخاف أن يكفروا به ويقعوا تحت طائلة العقاب الإلهي، وهذا الأمر يسبب لأنبياء الله أذى شديدًا. إذًا فموسى عليه السلام إنما عبّر عن هذه المخاوف نظرًا إلى قوة فرعون ومظالمه، فرأى أن فرعون طاغية متكبر وسيكذّبني، وسيلقى حتمًا المصير الذي لقيه منكرو الأنبياء دائمًا.

وهذا المعنى يدعمه الجزء التالي من الآية حيث قال موسى عليه السلام ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ حيث أُشير إلى مدى الحب الذي كان يكنّه موسى عليه السلام للقوم، فبين أنه يضيق ذرعًا برؤية كفر وفسوق هؤلاء الناس، وأن نفسه ينقبض حين يفكر أنهم سيرفضون رسالة الله وهدايته وبالتالي سيستوجبون العذاب.

بيد أننا نجد هناك فرقًا كبيرًا بين النبي ﷺ وموسى بهذا الصدد، وذلك أن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إني أخافُ أن يُكَذِّبُونِ﴾، بينما قال الله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(الأنعام:٣٤)، حيث بين الله تعالى أن محمدًا (ﷺ) لم يكن يخاف تكذيب القوم له، وإنما كان قلقًا لأنهم سيكذبون آيات الله تعالى. وهذا يعني أن حزنه لم يكن من أجل نفسه وإنما لأن القوم يكفرون بالله تعالى؛ وهناك بون شاسع بين الأمرين كما لا يخفى على أحد، إذ كان موسى عليه السلام يخاف تكذيب القوم له، أما النبي ﷺ فكان يحزنه إنكار القوم لأمر الله تعالى.

ثم هناك أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أن موسى عليه السلام كان يحب قومه حبًّا محدودًا حيث كان كفرهم يسبب له ضيق الصدر، أما النبي ﷺ فكان كفرُ قومه يؤلمه لدرجة أنه كاد يُهلك نفسه حزنًا عليهم حيث قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٤).. أي أن كفرهم يسبب لرسولنا ألمًا كاد يجعله يضع السيف على رقبته ويقطعها حتى القفا. وإذا كان ﷺ يحزن بهذه الشدة على عدم إيمانهم فقط، فما بالك بحزنه وأساه لو ماتوا على الكفر. فإن الذي يحزن

على عدم إيمان القوم بهذا الشكل فكم بالحري أن تشتد صدمته إذا علم أنهم قد ماتوا على كفرهم؟

ومن المستغرب حقًا أن نرى الناس يضحّون دائمًا بالصغير الرخيص من أجل الكبير الغالي، بينما نجد الله تعالى أنه لم يزل يضحي بعباده الذين كانوا كالجواهر الكريمة الغالية الثمن من أجل الإنسانية الضعيفة. لقد كان آدم عليه السلام أغلى جوهرة في عصره، ولكن الله تعالى قد ضحى به من أجل عباد ضعفاء ساندوا الشيطان. وكان نوح عليه السلام أفضل إنسان في زمنه، ولكن الله تعالى قد ضحى به من أجل أشقياء رفضوا الهدى. وكان إبراهيم عليه السلام أغلى كائن في زمنه، ولكن الله تعالى ألقاه في المحنة والبلاء من أجل إنقاذ أناس ناقصين. وكان موسى عليه السلام أغلى إنسان في زمنه، ولكن الله تعالى ضحى به من أجل بني إسرائيل الجبناء الذين تعاموا رغم رؤية آيات الله فقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). وكان عيسى عليه السلام أغلى كائن في زمنه، ولكن الله تعالى ضحى به من أجل قوم ناداهم عيسى نفسه بقوله: "أيها الحيّاتُ أولاد الأفاعي" (متى ٢٣: ٣٣). ومن ذا الذي جاء إلى الدنيا وكان أطهر وأسمى وأغلى من محمد رسول الله ﷺ الذي قد خُلق الكون من أجله حيث قال الله عز وجل له في حديث قدسي: "لولاك لما خلقتُ الأفلاكَ" (روح المعاني للألوسي)، ومع ذلك قد عُلّق هذا الإنسان على صليب لم يره الناس، من أجل هداية وخير أبي جهل وعتبة وشيبة، ولكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية فكان يراه معلقًا على ذلك الصليب فقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.. أي لعلك، يا محمد، ستذبح نفسك حتى القفا بسكّين الهم والحزن لأنهم لا يؤمنون؟

إذًا، فلا شك أن جميع الأنبياء قد أحبّوا أممهم وضحّوا من أجلهم كثيرًا، وكل واحد منهم قد أحزنه كفر قومه ونفاقهم، ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين محمد ﷺ وغيره من الأنبياء، إذ كانوا يضيقون ذرعًا برؤية كفر أممهم، وأما محمد ﷺ فكان يحزن برؤية كفر قومه بحيث يكاد يُهلك نفسه.

ثم إن موسى عليه السلام يقول هنا: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، ولكن الرسول ﷺ لما أُمر بتبليغ رسالة الله أخبر زوجته بدون تأخير، ثم أخبر قومه جميعًا، ولم يقل: رب إني أخاف أن يكذّبون، بل لبى نداء الله بشجاعة ولم يبد خوفًا ولا وجلا. وهذا الأمر دليل على أن محمدًا ﷺ أعظم درجة بكثير من موسى عليه السلام.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾. وقال أيضًا كما ورد في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾(القصص: ٣٥).. ولكن من عجائب قدرة الله تعالى أن موسى عليه السلام الذي كان يخاف أن لن يقدر على الكلام أمام فرعون، لم يدَعْ هارونَ يتكلم بجملة واحدة أمامه، بل أجاب بنفسه على أسئلته كلها. وإن كلمة: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ تدل على أن موسى كان فصيح اللسان بكل تأكيد، ولم يكن بلسانه أي عيب كما ظن بعض المفسرين القدماء (الرازي)، بيد أنه كان يرى أنه أقل فصاحة من هارون – عليهما السلام. ولكن لما فوّض الله إلى موسى أمر الرسالة فذهب إلى بلاط فرعون فإن قوة فصاحته وبراهينه بهرت فرعون وألقته في ورطة، ففكر أنه لا بد الآن من عقد مناظرة جماعية يساعده فيها الآخرون إزاء موسى وإلا فإنه سيُضِلّ الناس جميعًا.

ولقد رأينا في جماعتنا أيضًا أن كل من ينضم إليها بإخلاص ينطلق لسانه وإن كان من قبل أُمّيًا لا يعلم شيئًا، فيهابه كبار المشايخ أيضًا ويهربون من نقاشه. إنه يزداد ذكاء من ذي قبل، وإن قدرته على النقاش تزيد بشكل مذهل، مما يكشف جليًا أن علمه ليس علمًا ذاتيًا، إنما هو موهبة وعطاء من الله تعالى الذي يؤيده في كل موطن ويلهمه عند الحاجة ما يحير العقول.

كان في قاديان شخص يدعى "پيرا"، وكان خادمًا للمسيح الموعود عليه السلام. كان شخصًا بليدًا جدًّا بحيث كان من المتعذر عليه أن يفهم ما هي الأحمدية، ولكنه كان يحبّ المسيح الموعود عليه السلام حبًّا جمًّا. كان من سكّان الجبال، فأُصيب بداء الروماتزم، فقيل لأقاربه أنه لن يشفى في هذه المنطقة الجبلية الباردة، فليذهبوا به إلى بعض مناطق السهول الحارة. فجاء به أهله إلى مدينة "غورداسبور". ولكنهم كانوا فقراء، فلم يرض أحد من الأطباء بأن يعطيه الدواء ويطعمه أيضًا. فقيل لهم: هناك

في قاديان شخص من أهل الله تعالى، وهو طبيب أيضًا، فليذهبوا به إليه، فإنه سيتولى علاجه وطعامه أيضًا. فجاءوا به إلى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وتركوه عنده وانسلّوا عائدين إلى وطنهم. فبدأ علاجه، فتماثل للشفاء شيئًا فشيئًا. وعلم أهله أنه قد شُفي وأصبح قادرًا على العمل، فجاءوا قاديان في فصل الشتاء التالي وحاولوا إقناعه أن يرجع معهم. ولكن قلب الرجل كان عامرًا بالخير على ما يبدو، فأجابهم: لا شك أنكم أهلي، ولكنكم تركتموني عند هذا الرجل وفررتم، فليس لي قريب الآن إلا الذي قام بعلاجي، ولا أستطيع تركه.

فكان هذا الرجل يقضي النهار مستلقيًا في باحة دار المسيح الموعود عليه السلام، ويقوم ببعض أعمال البيت البسيطة، فمثلاً إذا جاء ضيف قدم له الطعام. وكان بليدًا لدرجة أن الخليفة الأول رضي الله عنه كان ينصحه كثيرًا بأن يصلي ولكنه كان يجيبه دائمًا: لا أعرف كيف أصلي. وكان حضرته رضي الله عنه يقول: سيعترض القوم على المسيح الموعود عليه السلام بسبب هذا الرجل الذي يقضي النهار مستلقيًا على السرير أمام بيته عليه السلام ولا يصلي، ولذلك كان متحمسًا جدًّا لإصلاحه، وكان ينصحه مرة بعد أخرى بأداء الصلاة، ولكنه كان يجيبه دائمًا: أنا لا أعلم الصلاة. وفي الأخير قال له حضرته: إذا كنت لا تعلم الصلاة، فيمكنك أن تردد في الصلاة: سبحان الله، سبحان الله. فكان الرجل بعد ذلك يقف مع المصلين في كل أسبوع مرة، ويردد في صلاته: سبحان الله، سبحان الله. وظن الخليفة الأول رضي الله عنه أنه لو أغراه بالجائزة فلربما يواظب على الصلاة، فقال له ذات يوم: لو أديت الصلوات الخمس كلها في اليوم ولو مرة واحدة لأعطيتك روبيتين. وكان هذا المبلغ جائزة كبيرة له في ذلك الزمن، فقال: سأصلّي اليوم كل الصلوات. وربما بدأ بصلاة العشاء، ثم صلى الفجر ببالغ الصعوبة، واشترك في صلاتي الظهر والعصر أيضًا، وبقي عليه أن يصلي المغرب فقط. ولما كان عدد الضيوف الذين يأتون المسيح الموعود عليه السلام في تلك الأيام قليلا، فكان طعامهم يُعّد في بيتنا، ويقدَّم لهم بعد صلاة المغرب. وتصادف أن صلاة المغرب أُخّرت في ذلك اليوم قليلاً، وحان وقت تقديم الطعام للضيوف. وكانت في البيت خادمة تحمل الطعام إلى "پيرا" ليقدمه للضيوف، فنادته من داخل

البيت بأن الطعام جاهز، فتعال وخُذْه إلى الضيوف، إذ كانت لا تعرف أن "پيرا" غير موجود في باحة البيت كالمعتاد، بل ذهب يصلي مع الناس في المسجد*، فنادته ثلاث أو أربع مرات، ولكن لا مجيب لمن تنادي. فهدّدته بصوت عال وقالت: تعال يا "پيرا" خُذ الطعام وإلا سأشكوك إلى أهل البيت. فسمع "پيرا" صوتها العالي هذه المرة، فأجابها وهو يصلي: "انتظري قليلاً، فسآتيك بعد الانتهاء من التشهد." أي أنه تكلم وهو في قعدة التشهد من الصلاة، وبالتالي قد حُرم من جائزة الروبيتين. إذًا فكان المسكين غاية في البلادة حتى إنه كان يضيف زيت الكيروسين إلى طعامه مكان زيت الطعام ثم يأكله ليضحك الضيوف، وإذا قيل له: لماذا وضعت الكيروسين في الطعام؟ قال: ما الحرج في ذلك، فكلاهما زيت.

لم يكن في تلك الأيام مكتب للرسائل البرقية في قاديان و لم تكن السكة الحديدية للقطار قد مُدّت إليها بعد، وكلما احتاج المسيح الموعود عليه السلام إلى إرسال رسالة برقية أو إلى استلام طرد بعث شخصًا إلى محطة القطار بمدينة "بطالة"، وكان يبعث "پيرا" لهذا الغرض أحيانًا. وكان المولوي محمد حسين البطالوي – الذي كان من أشد الناس عداء لجماعتنا – يذهب إلى محطة القطار بمدينة "بطالة"، وكلما رأى شخصًا غريبًا ينـــزل من القطار أسرع إليه وسأله: أين تريد أن تذهب؟ وإذا علم أنه ينوي الذهاب إلى قاديان حاول إغواءه وقال: ارجِعْ إلى حيث جئت لأنك ستضيع إيمانك لو ذهبت إلى هناك. وفي أحد الأيام لم يجد البطالوي على المحطة شخصًا آخر، فتوجه إلى "پيرا" الذي كان قد ذهب هناك لإرسال رسالة برقية أو لاستلام طرد، فقال له: إن الميرزا (أي المسيح الموعود عليه السلام) كافر ودجال، فلماذا تضيع إيمانك يا "پيرا"، وتدمّر عاقبتك باتّباعه؟ وظل "پيرا" منصتًا إلى حديثه بدون أن يتكلم بشيء. فلما أخرج البطالوي كل ما في جعبته وظن أن "پيرا" قد اقتنع بكلامه، قال له: ما رأيك فيما قلتُ؟ فأجابه: أيها الشيخ، إني رجل جاهل لا أعلم

* علمًا أن المسجد ملاصق بدار المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

شيئًا ولا أفهم هذه المسائل، غير أن هناك أمرًا أستطيع أن أفهمه، وهو أنني منذ سنوات كثيرة آتي إلى هذه المحطة لاستلام الطرود وإرسال الرسائل البرقية، وأراك تأتي هنا دائمًا لتحاول منع الناس من الذهاب إلى قاديان، وربما قد استهلكت أحذية كثيرة في الذهاب والإياب، ومع ذلك لم يتأثر أحد بوعظك، وأما حضرة الميرزا فهو جالس في قاديان ومع ذلك ينجذب إليه الناس انجذابًا؛ ولا بد أن هناك سببًا وراء هذا الفرق بينك وبين حضرته.

فكم هو لطيف وصحيح هذا الجواب. الواقع أن "پيرا" كان أكثر غباء من أن يفهم المسائل الدينية، وكان لا يدري الأدلة والبراهين، ولكنه بسبب حبه الطبيعي للمسيح الموعود عليه السلام أدرك على التو أن الشيخ البطالوي كاذب حتمًا.

إذًا، فإن الله تعالى يعلّم عباده أحيانًا ما يحير العقول؛ ذلك لأن الله تعالى يملك كل شيء، وكل ما يفتقر إليه المرء موجود عنده تعالى. فإذا أعوزه الذكاء فهو موجود عند الله، وإذا نقصته الشجاعة أو السخاء أو الصحة أو العزة أو المال، فعند الله خزائنها، وإنه تعالى يهب عباده من هذه الخزائن بشكل مذهل.

كان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول: لقد رأينا أثناء المناظرة التي تمت بين المسيح الموعود عليه السلام وبين القسيس "آتم" مشهدًا أذهلنا ورفع إيماننا إلى السماء. فإن القسيسين لما عجزوا في المناظرة ورأوا أنهم لا تنفعهم حيلة تجاه حضرته عليه السلام، مكروا مكرًا بمساعدة بعض المسلمين ليستهزئوا به عليه السلام، فأحضروا في أحد الأيام بعض الصمّ والعُمي والعُرج قبل موعد المناظرة وأخفوهم هناك، ولما حضر المسيح الموعود عليه السلام قدّموهم إليه فجأة وقالوا: إن هذا النـــزاع لن يُحسَم بالنقاشات؛ إنك تدعي بأنك مثيل للمسيح الناصري، وكان المسيح يهب البصر للعُمي والسمع للصُمّ وقوة المشي للعُرج؛ وقد أحضرنا كل هؤلاء لكي لا تتعب في البحث عنهم، فإذا كنت مثيلاً للمسيح الناصري حقًّا فاشفِ هؤلاء القوم؟ يقول حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه لما سمعنا كلام القسيسين وجلت قلوبنا وخارت قوانا. كنا نعلم أنه كلام فارغ، ولكن خشينا شماتة الأعداء واستهزاءهم. فلما نظرنا إلى المسيح الموعود عليه السلام لم نجد على وجهه أي آثار للقلق أو الضيق، بل لما فرغ القسيسون من كلامهم قال لهم بكل

هدوء: إن المسيح الذي أدّعي بأني مثيل له لم يكن، بحسب تعليم الإسلام، يشفي العمي والصم والعرج الماديين، وإنما أنتم الذين تعتقدون بأن المسيح كان يشفي العمي والصم والعرج الماديين؛ وقد ورد في كتابكم أيضًا أنه لو كان فيكم إيمانٌ مثلُ حبّةِ خردلٍ لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقِلْ من هنا إلى هناك فينتقل، وتضعون أيديكم على المرضى فيبرَؤون (متى ١٧: ٢٠ ولوقا ١٧: ٦ ومرقس ١٦: ١٨)؛ فلا يحق لكم أن تطالبوني بهذا، لأني لا أستطيع أن أُري أية معجزات إلا كالتي أراها سيدي محمد المصطفى ﷺ، ولو طالبتموني بها فإني مستعد لأريكم إياها. أما المعجزات التي تقولون أن المسيح قد أراها فإن كتابكم يعلن أن كل مسيحي فيه حبة خردل من الإيمان قادرٌ على أن يُريها؛ وقد أحسنتم صنعًا إذ وفّرتم علينا تعب البحث عن العُمي والصم والعرج، فاشفوهم إن كان فيكم مثقال حبة خردل من الإيمان. ويروي الخليفة الأول رضي الله عنه أن هذا الجواب بهت أولئك القسيسين الكبار، فأخذوا يُبعدون العُميَ والصمّ والعرج عن أنفسهم. (الحرب المقدسة، الخزائن الروحانية المجلد ٦ ص ١٥٠-١٥٦)

إذًا، فإن الله تعالى يُكرم مقرّبيه في كل موطن، ويلهمهم من الأجوبة ما يبهت الأعداء تمامًا.

وذات مرة جاء قاديان قسيسٌ أمريكي شهير اسمه زويمر، وكان يحرر جريدة تبشيرية كبيرة، وكان من أبرز الشخصيات في المنظمات التبشيرية المسيحية في العالم أجمع. كان قد سمع عن قاديان، فلما جاء لزيارة الهند وفرغ من زيارة شتى المدن والأماكن أتى قاديان بصحبة قسيس آخر اسمه غاردون (Gardon). وكان المرحوم الدكتور خليفة رشيد الدين حيًّا عندها، فأراه جميع الأماكن الهامة في قاديان. ولم يكن في قاديان في تلك الأيام أي بلدية ولا مكتب لها تهتمّ بنظافة القرية، فكانت القمامة مرمية هنا وهناك في الشوارع. والقسيس قسيسٌ في كل حال إذ لا يترك فرصة للطعن تنفلت من يده، فقال القسيس زويمر للخليفة رشيد الدين ساخرًا: لقد رأينا قاديان ورأينا نظافة قرية المسيح الجديد أيضًا! فأجابه ضاحكًا: جنابَ القسيس المحترم، لم تخضع الهند لحكم المسيح الجديد بعد، بل لا تزال خاضعة لحكم المسيح

الأول[٥]، وإن ما تراه إنما هو نموذج نظافة المسيح الأول في الواقع. فتعرَّضَ القسيس لندم وخزي شديدين.

ثم بعث إليّ القسيس بأنه يريد مقابلتي. وكنت عليلا بعض الشيء، فأرسلت إليه أن يخبرني عن هدف لقائه. فقال إنه يريد أن يوجه إلي بعض الأسئلة، ولكنه لا يريد أن يخبرني بها قبل اللقاء. فدعوته للمقابلة، فجاء مع القسيس غاردن وشخص أو شخصين آخرين. فقال: أريد أن أسألك بعض الأسئلة؟ قلت: تفضّل. قال: ماذا رأي الإسلام عن التناسخ؟ هل يُقرّه أو يرفضه؟ وما إن وجه إلي السؤال حتى ألقى الله في روعي أنه يقصد في الحقيقة أنكم تؤمنون أن المسيح الموعود هو بروز ومثيل للمسيح الناصري، وهذا يعني أن روح المسيح الناصري قد حلت به، وإذا كان هذا هو المراد من البروز فهذا هو التناسخ بعينه، والتناسخ يتنافى مع القرآن الكريم. فقلت له متبسمًا: لقد فهمتَ الأمر خطأ، فإننا لا نقول بأن روح المسيح الناصري قد حلت في مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليهما السلام، وإنما نسمّيه مثيلاً للمسيح من حيث إنه قد جاء متخلقًا بمثل أخلاق المسيح مصطبغًا بمثل روحانيته. فتغيّر لون القسيس من جوابي وقال: من ذا الذي أخبرك أنني كنت أريد أن أوجه إليك هذا السؤال؟ فقلت له: ولكن أخبِرْني أنت: ألم يكن هذا هو قصدك من وراء السؤال؟ قال: نعم، هذا ما كنت أقصد، إذ كنتُ أتساءل: إن القرآن الكريم يخالف عقيدة التناسخ، فكيف يسمي الأحمديون مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية مسيحًا موعودًا.

ثم قلت له: تفضل بسؤالك الثاني. فقال: أين يجب أن يُبعث النبي؟ أي أين يجب بعثته حتى يقوم بمهمته على ما يرام؟ وبمجرد أن تفوه بسؤاله هذا حتى ألقى الله في روعي ثانية أنه يريد أن يقول إن قاديان قرية صغيرة، فكيف يمكن أن تكون مركزًا للعالم كله، وكيف يمكن دعوة الدنيا كلها من هذه القرية الصغيرة النائية؟ إذا كان

---

[٥] يعني أن الهند خاضعة لحكم الإنجليز الذين هم أتباع المسيح الناصري عليه السلام. (المترجم)

هدف بعثة مؤسس الجماعة تبليغ دعوة الإسلام في العالم كله، فكان ينبغي أن يُبعث في مكان يصل منه صوته إلى أنحاء المعمورة كلها، لا في قاديان التي هي قرية صغيرة. فقلت له متبسمًا: حضرة القسيس، النبي يمكن أن يُبعث في أي قرية مثل الناصرة أو أكبر منها. لقد بُعث المسيح الناصري عليه السلام في قرية اسمها الناصرة التي لم يكن بها وقتئذ أكثر من عشرة أو اثني عشر أسرة. فامتُقع القسيس بجوابي مرة أخرى حيث أجبته على السؤال الحقيقي الذي كان يخفيه وراء كلماته.

ثم سألني سؤالاً ثالثًا لا أحفظه الآن. على كل حال، لقد وجه إلي ثلاثة أسئلة، وقد أخبرني الله تعالى في كل مرة عن قصده الحقيقي من وراء السؤال الذي كان يوجهه بأسلوب ملتوٍ. فثبت أن الله تعالى يتصرف على قلوب عباده بشكل غريب لينصرهم، وهذا التصرف إنما يتأتى من عند الله تعالى وليس من قبل الناس. فذات مرة قابلني شيخ مجادل وقال لي: ائتني بدليل واحد على صدق مؤسس الجماعة؟ فقلت له: إن القرآن الكريم كله يشكل دليلاً على صدقه عليه السلام. قال: أخبرْني أية آية تدل على صدقه؟ قلت: كل آية قرآنية. ولا شك أن كل آية قرآنية يمكن أن تشكل بطريق أو بآخر برهانًا على صدق نبي، ولكن بعض الآيات القرآنية يصعب شرحها للآخرين حتى يعرفوا كيف أنها تشكل دليلاً على صدق نبي. لنفترض أن هناك آية تتحدث عن القتال، فبرغم إمكانية الاستدلال بها على صدق نبي، إلا أن ذلك الدليل أسمى من أن يستوعبه عامة الناس؛ غير أنني كنت على يقين بأن الله تعالى سيتصرف على لسان هذا الشيخ بحيث إنه لن يشير إلا إلى آية تدل حتمًا على صدق المسيح الموعود عليه السلام دلالة واضحة. فظل الشيخ يصر عليّ أن أخبره عن آية قرآنية واحدة، بينما أقول له: يمكنك أن تقرأ أي آية وستجد فيها صدقه عليه السلام. وفي الأخير قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٩). فأيقنت أن الله تعالى هو الذي قد تصرف على لسان هذا الشيخ فجعله يقرأ هذه الآية، لأنه كان قد سألني من قبل: ما دام المسلمون يصلّون ويصومون ويحجّون، ويؤمنون بالله ورسوله، فأي حاجة بهم إلى نبي؟ فقلت له: عمن تتحدث هذه الآية؟ قال: عن المسلمين. قلت: إذًا فإنها تعلن أن بعض المسلمين

أيضًا يفسدون حيث يقولون بأفواهم إنهم مؤمنون، ولكنهم ليسوا بمؤمنين في الحقيقة؛ والقرآن يبين أنه لا يكفي المرء قوله بلسانه إنه مؤمن ما لم يؤكد إيمانَه بعمله. فإذا كان المسلمون يمكن أن يفسدوا أفلا يبعث الله تعالى لإصلاحهم نبيًا؟

لا شك أن الله تعالى هو الذي يهب الإنسان الاقتناع والاطمئنان، إلا أن قولي هذا أفحم الشيخ، فلم يستطع الجواب. وكنت موقنًا من قبل أنه لن يقدم أمامي إلا تلك الآية التي تفحمه.

إذًا فإن العلم والشجاعة والعزة والقوة كلها بيد الله تعالى. ولذلك نجد أن موسى عليه السلام ظن أنه لن يستطيع الكلام في بلاط فرعون، ولكن لما حان وقت الكلام أيّده الله تأييدًا أذهل فرعون، فلم يملك إلا أن يقبل الهزيمة أمام موسى عليه السلام في مجال الأدلة والبراهين.

وأما قول موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ فليس معناه أن لا يبعثه الله رسولاً ويبعث هارون مكانه، وإنما المعنى أنه توسل إلى الله بأن يوحي إلى هارون أيضًا ويرسله معه مساعدًا، كما هو واضح من قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَاجْعَلْ لِّي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾(الآيات٣٠-٣٣).

الواقع أن الله تعالى عندما يشرّف أحدًا من عباده الأطهار بالنبوة فإنه يصاب بالقلق والذعر بسبب تواضعه، مخافة أن لا يقدر على حمل هذه المسؤولية الجسيمة كما ينبغي، ويقصّر في أداء مهمته. وهذا هو دأب جميع الأنبياء وهذا هو المسلك الذي سلكه موسى عليه السلام أيضًا، فتوسل إلى الله تعالى أن يبعث هارون أيضًا معه. وتؤكد الأحاديث أن رسول الله ﷺ أيضًا تواضعَ عند بدء الوحي، فعندما قال له الملاك: "اقرأْ" أجاب: "ما أنا بقارئ" (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي).. أي لست من الأناس المثقفين، فكيف أقوم بهذه المهمة الصعبة؟ ومن أجل ذلك قد قضى النبي ﷺ الأيام الأولى من الوحي في اضطراب شديد، حتى إذا تواتر التأييد الإلهي أدرك أن من واجبه الآن أن يمضي قدمًا غير خائف ولا هياب.

بيد أن النبي ﷺ لما كان أكثر عرفانًا بالله تعالى من موسى عليه السلام، فلم يطلب مساعدًا ولا وزيرًا، بل تقدم وحمل هذا العبء الثقيل وحده، مع أن مهمته ﷺ كانت أكبر وأعظم من مهمة موسى عليه السلام. فقد بُعث موسى إلى أمة متمدنة، وإن تعليم الأناس المتمدنين علوم الدين وإقامة النظام بينهم ونفخ روح الجماعة فيهم أمرٌ سهل نسبيًا، ولكن الرسول ﷺ قد بُعث في قوم كانوا لا يعرفون ما التمدن وما التحضر، بل كانوا يعتبرون الطاعة التي هي شعار الأمم المتمدنة ذلاً وضيمًا. فقد ورد في الكتب الأدبية العربية أن ملكًا عربيًا اسمه عمرو بن هند كان يحكم منطقة في الجزيرة العربية ناحية العراق والشام، وقد بلغ أوج العز والمنعة بالنسبة للعرب، حتى ظن أن كل العرب يطيعونه. فقال لحاشيته ذات يوم: أتعلمون أحدًا من العرب يأبى الطاعة لي؟ كان يدرك جيدًا أن العرب أُمّة أبيّة لا تعرف الطاعة والانقياد، ولكنه ظن أنه قد نال من القوة والهيبة بحيث لن يرفض أحد منهم الخضوع له. فقيل له: نعم، هناك شخص واحد على الأقل لن ينقاد لك واسمه عمرو بن كلثوم، وهو سيد قبيلته. قال: حسنًا، سأدعوه للتأكد من ذلك. فأرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره لأنه مشتاق لرؤيته، وأن يُحضر معه أُمّه وأفرادًا من قبيلته. وكان الملك عندها مقيمًا في رُواقه خارج المدينة، فحضر عمرو بن كلثوم مع أصحابه، وضرب خيامه قريبًا من خيام الملك. وكان الملك قد أغرى أُمّه أن تستخدم أم عمرو في قضاء أمر على مائدة الطعام لاختبار إبائها وحميّتها. ورغم أنه كان ملكًا إلا أن أُمّه أخذت تخدم ابنها والضيوف على مائدة الطعام على عادة العرب، وهذا يعني أنها أصبحت خادمة لعمرو بن كلثوم ولأمه وأقاربه، ولو ساعدتها أم عمرو في حاجة ما على المائدة لم يكن في ذلك ما ينال من عزتها وكرامتها. ولكن ما حدث هو أنه فيما كان الجميع يتناولون الطعام قالت أمُّ الملك لأمِّ عمرو ناوِليني الطبق، و لم تستطع أن تطلب منها أي مساعدة أكثر من هذا. فأخذت أم عمرو بن كلثوم تصرخ وتستغيث قائلة: يا ويلَ أُمِّ عمرو بن كلثوم! وكان عمرو حينذاك يتناول الطعام مع الملك، وكان قد ترك سيفه في خيمته تكريمًا للملك، فلما سمع صراخ أمه لم يسألها عن سبب الصراخ، بل قام فزعًا ونظر في الخيمة، فوجد سيف الملك معلقًا

هناك، فخطفه وقتل به الملكَ. ثم خرج من الخيمة وأمر قبيلته بالسلب والنهب، ثم عاد إلى وطنه بالغنائم. (تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٦٤، والشعر والشعراء المجلد الأول، عمرو بن كلثوم ص ١٥٧)

فإلى مثل هؤلاء القوم الهمجيين الوحشيين والمنحرفين قد بُعث النبي ﷺ.

ثم لم يُبعث النبي ﷺ لهداية أمة واحدة مثل موسى عليه السلام الذي جاء لهداية بني إسرائيل فقط، بل قد حُمّل ﷺ مسؤولية جمع العالم كله على دين واحد وإحضارهم إلى العتبة الإلهية. ورغم هذه المسؤولية الكبيرة لم يسأل النبي ﷺ ربه بأن يجعل له وزيرًا من أهله أو معارفه، بل قام ولبى نداء الله وبدأ العمل. وهذا يعني أن موسى عليه السلام لم يكن واثقًا بنفسه لحمل المسؤولية وحده، فطلب مساعدًا. لا جرم أن مساعدًا واحدًا لا يغني المرء عن جماعة من الناس إلا أنه إذا وجد مساعدًا بجنبه ارتفعت معنوياته وقال في نفسه إنه ليس وحيدًا بل هناك صاحب له. ولكن محمدًا رسول الله ﷺ لم يبال بكونه وحيدًا، و لم يكترث بما ستعامله به الدنيا.

على أية حال، توسّل موسى عليه السلام إلى الله تعالى أن يبعث أخاه هارون معه كمساعد، فقبل الله طلبه. ولكن موسى عليه السلام الذي كان يعتذر إلى الله تعالى بعدم انطلاق لسانه، عندما ذهب إلى بلاط فرعون شحنه الله تعالى بقوة البيان، فظل يرد على كل سؤال أثاره فرعون دون أن يستعين بهارون عليه السلام. وهذا يماثل حادثًا وقع عند وفاة النبي ﷺ، فإن الأنصار والمهاجرين لما اختلفوا في أمر خلافته ﷺ ذهب أبو بكر وعمر إلى سقيفة بين ساعدة، ويروي عمر قائلا: كنت قد أعددت في نفسي كلمة لهذه المناسبة لإقناع الأنصار بصحة موقفي، ليختاروا الخليفة من المهاجرين بدلاً من الأنصار. ولما حضرنا قام أبو بكر خطيبًا، فقلت في نفسي: ماذا يمكن لهذا الرجل أن يقول؟ ولكنه، والله، قد ذكر كل ما أعددته في نفسي بل زاد عليه، فعلمتُ أني ما كنت لأسبقه أبدًا (صحيح البخاري: كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، ومسند أحمد: حديث السقيفة، والبداية والنهاية للدمشقي: الجزء الخامس، فصل في ذكر أمور مهمة وقعت بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، قصة سقيفة بني ساعدة). كذلك تمامًا ظن موسى عليه السلام أنه لن يستطيع الكلام في بلاط فرعون، ولكنه لما وصل هناك أيده الله تعالى

بشكل مذهل لم تكن بعده حاجة أن يتكلم هارون بكلمة واحدة، وهكذا كشف الله تعالى للناس عظمة اختياره لموسى عليه السلام.

بعدها قدّم موسى عليه السلام إلى الله تعالى عذرًا آخر فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.. أي أنهم يتهمونني بارتكاب ذنب فأخاف أن يقتلوني. وهذا لا يعني أن موسى عليه السلام كان يخاف الموت في سبيل الله تعالى، إنما كان يخاف أن يذهب إلى فرعون فيلقي عليه القبض فورًا، ثم يأمر بإعدامه بحجة قتل مصري كان قد مات بيده من قبل، فلا يتمكن من تبليغهم رسالة الله. وهذا يعني أنه لم يكن يخاف موته، وإنما كان يخاف أن يُقتل قبل أداء واجبه، فتتضرر المهمة التي فوّضها الله إليه، وإلا فإن الأنبياء لا يخافون الموت في سبيل الله تعالى. لا شك أن الأنبياء أغلى بكثير من أقوامهم بحيث لو تطلّب إنقاذ حياة نبيٍّ التضحيةَ بكل من في الأرض لجازت هذه التضحية، ولكن فيما يتعلق بالحق فهو أغلى من النبي، لأنه خادم للحق كما يكون أي من أتباعه البُسطاء خادمًا للحق، ولو مات أو نُفي نبيّ من أية سلسلة روحانية – ما عدا أوّل وآخر نبيّ فيها، لأن تلك السلسلة متوقفة عليهما – فلا يقدح ذلك في صدق ذلك النبي، كون الحق حاكمًا والنبي تابعًا له، كما يكون النبي حاكمًا وأُمّته خادمة له. وكما أنه لا حرج في التضحية بالعالم كله من أجل نبيّ، كذلك لا حرج في استشهاد نبي بعد أن يكون قد بلّغ رسالة الله تعالى، إذ لم يأت إلى الدنيا إلا لنشر ذلك الحقّ.

مجمل القول إن موسى عليه السلام لم يقل هذا الكلام خوفًا من الموت، بل حفاظًا على الحق حيث خاف أن يقع فريسةً للاضطهاد قبل تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى للناس.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أن القتل الذي تم بيده عليه السلام لم يكن عمدًا و لم يجعله مجرما عند الله تعالى، ذلك لأن الذنب هو كل فعل يأتي بنتيجة سيئة وإن لم يجعل صاحبَه مجرمًا عند الشرع. (المفردات*)

---

* نصّ ما ورد في "المفردات" هو كالآتي: "يُستعمل الذنْب في كل فعل يُستوخم عقباه اعتبارًا بذَنَبِ الشيء، ولهذا يسمى الذنْب تبعةً اعتبارًا لما يحصل من عاقبته". (المترجم)

وبالمناسبة فهنا أيضًا نجد فرقًا واضحًا بين مكانة الرسول ﷺ وبين مقام موسى عليه السلام، ذلك لأن موسى عليه السلام كان قد اتُّهم قبل بعثته بهذه الجريمة، بغض النظر عن صحتها أو زيفها، أما محمد رسول الله ﷺ فكان الناس يسمونه أمينًا وصَدوقًا قبل بعثته معترفين بصلاحه وأمانته وعدله.

المهم أن شخصًا من قوم فرعون كان قد قُتل بيد موسى عليه السلام في ذلك الحادث، وكان وزراء فرعون يريدون قتله بتهمة قتل عمد، ففرّ موسى من مصر إلى مدين، ولذلك سمّى فعله هذا ذنبًا، معربًا عن مخاوفه أنه لو رجع إليهم فسيلقون عليه القبض فورا ويقتلونه.

وقد وردت هذه الواقعة في القرآن الكريم ونوجزها كالآتي:

كان موسى عليه السلام يمشي في المدينة في إحدى الليالي، فوجد شخصين يقتتلان أحدهما من قومه والآخر من قوم عدوه فرعون. فاستغاثه الذي من قومه ضد عدوّه، فتقدم موسى عليه السلام ووجه إليه لكمة. ويبدو أن اللكمة كانت شديدة، أو كان المصري ضعيف القلب أو الكبد فأصابت قلبه أو كبده، فمات في مكانه. وفي صبيحة اليوم التالي خرج موسى عليه السلام في المدينة فوجد الذي استغاثه البارحة يتقاتل مع شخص آخر ويستغيث به ثانية، فعلم أن هذا الشخص من قومه عصبيّ المزاج كثير الخصام، وإلا فلمَ لا يتقاتل الناس إلا معه هو؟ فزجره موسى وقال: لعل الذي كان يقاتلك البارحة كان معتديًا عليك، ولكنك شخص عصبي فيما يبدو. ثم تقدّم موسى عليه السلام وهمّ أن يبطش بالذي هو من أعدائه، ولكن الذي هو من قومه ظن أنه يريد ضربه هو بعد أن زجره، فأخذ الغبي يصرخ عاليًا ويقول لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ فاجتمع الناس بصراخه وعلموا أن موسى هو الذي قتل الرجل البارحة. وبما أن القتيل كان من قوم فرعون فانتشر الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم. فثار القوم كلهم حتى بلغ الخبر كبار المسؤولين، فأجمعوا على قتل موسى عليه السلام. وكان بين المسؤولين شخص يتعاطف مع موسى سرًّا،

فجاءه فزِعًا وأخبره أن رؤساء القوم يتآمرون على قتله، فعليه أن يهرب من المدينة فورًا. ففرّ موسى عليه السلام و لم يبرح حتى وصل إلى مدين.

وإلى حادث القتل هذا أشار موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾، حيث خاف أن يقتله القوم بتهمة القتل.

وفي قوله هذا دليل آخر على فضل الرسول ﷺ، حيث أخذ موسى عليه السلام من خلال هذه المخاوف وعدًا من الله لحمايته، ولكن الرسول ﷺ قام لتوّه لتبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى غير خائف أو هيّاب، و لم يكترث للأذى الذي سيصيبه في سبيل الله سبحانه وتعالى.

ولما أبدى موسى عليه السلام مخاوفه قال الله له:كلا، لن يصيبك ضرر كما تظن، فاذهبْ أنت وأخوك بآياتنا إلى فرعون وأنا معكما أسمع وأجيب دعاءكما دائما؛ فابتهِلا إلي كلما واجهتكما مشكلة، وسآتي لنصرتكما فورًا. فاذهبا الآن إلى فرعون وقولا له إنا رسول رب العالمين، فأطلقْ سراح بني إسرائيل لنأخذهم معنا.

يعترض البعض هنا ويقول: كيف قيل هنا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مع أن المفروض أن يقال "إنّا رسولا رب العالمين"؟

والجواب أن العرب تقول أحيانا: "هذانِ رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي" (فتح البيان: تحت قوله تعالى: فأْتيا فرعون فقُولا...). كما ورد في مكان آخر من هذه السورة نفسها قول إبراهيم عليه السلام عن الأصنام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(الآية:٧٨)، مع أن المفروض في الظاهر أن يقال "إنهم أعداء لي". وعليه فلا يمكن الاعتراض على قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا من حيث القواعد العربية ولا من حيث أساليب القرآن الكريم.

أما حرف "أن" في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، فقد تكون تفسيرية أو مصدرية.

وأرى لزامًا عليّ هنا أن أبيّن الاختلاف الموجود بين القرآن الكريم والتوراة حول هذا الموضوع. فقد ورد في التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: "تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له: الربُّ إلهُ العبرانيين التقانا، فالآن نمضي سَفَرَ ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا" (الخروج ٣: ١٨). وكأن الله

تعالى- والعياذ به - علّم موسى وهارون الغشّ والخداع، حيث قال لهما إن فرعون لن يسمح لبني إسرائيل بالفرار من مصر لو أخبراه بذلك صراحة، فعليهما بخداعه، فليقولا له إنا نريد تقديم القرابين لربّنا فليسمَحْ لبني إسرائيل بالخروج من مصر، فإذا سمح فرّوا من بلاده. ولكن القرآن الكريم يعلن أن هذا كذب إذ لم يأمر الله موسى وهارون باللجوء إلى الغش والخداع أبدًا، بل أمرهما بأن يقولا لفرعون صراحة أن يرسل معهما بني إسرائيل إذ قد تجاوز في اضطهادهم الحدود كلها.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾، يبيّن أيضًا أن موسى عليه السلام كان مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل فقط، لكي يحرّرهم من قيود الرقّ والعبودية التي كانوا يرزحون تحتها منذ مئات السنين. أما محمد رسول الله ﷺ فقد فضّله الله على موسى من هذه الناحية أيضا، إذ لم يبعثه إلى قوم واحد بل إلى الدنيا كلها. قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(سبأ:٢٩).. أي لا فرق عندنا بين عربي وعجمي وشرقي وغربي، فمن واجب كل إنسان، أيًّا كان وطنه أو لغته، أن يلبي دعوتك ويعمل بوصاياك.

لقد وُلد النبي ﷺ في بلاد كانت شِبْهَ منعزلة عن باقي العالم، وكانت متخلفة حضاريا وعلميا وسياسيا، وفي هذه البلاد التي كانت أضعف بلدان العالم، كان محمد ﷺ أضعف إنسان، ومع ذلك أخبره الله تعالى أنه قد بعثه رسولاً إلى العالم أجمع.

ولو قمنا بتفسير هذه الجملة القرآنية بشكل سليم لكان معناها كالآتي: يا أيها النبيّ، قُلْ للناس: لقد أُرسلتُ لهداية بلاد كندا التي لا تعرفونها، وبُعثت لهداية الولايات المتحدة الأمريكية التي لم يتم عمرانها بعد، وجئت لهداية بلاد البرازيل وكوبا وبوليفيا وتشيلي وكولومبيا والمكسيك التي لم يعمرها أحد بل لا تزال مجهولة للناس، وستُعمر في المستقبل؛ وقد أُرسلتُ إلى أهل بلاد اليابان والفيلبين التي لا تعرفونها، بل إنني مأمور بهداية البلاد التي لم تكتشف بعد.

إذًا، فإننا حين نتوسّع في تفسير هذه الآية نصاب بالذهول، إذ لم يملك النبي ﷺ أية أسباب لتحقيق دعواه هذه. فمتى كانت عنده الطائرات حتى يصل بها إلى

أمريكا وكندا والبرازيل وكولومبيا وبوليفيا؟ ومتى كانت عنده الوسائل لتبليغ دعوته إلى هؤلاء الأمم حتى بعد وفاته؟ ومتى كان بإمكانه أن يصل إلى البلاد التي لم تكن قد اكتُشفت بعد؟ ثم إننا نرى في الدنيا أن الآباء إذا قالوا لأولادهم شيئا نسوه، وإذا تذكّروه نسيه أحفادهم أو أبناء الأحفاد حتمًا، أما الرسول ﷺ فأي ضمان كان يملكه لتحقُّق دعواه هذه، إذ كانت هذه البلاد مجهولة للناس في عصره، فقد اكتُشفت أمريكا بعد وفاته بتسعة قرون. ولو فرضنا جدلاً أن أمريكا كانت معروفة للعالم آنذاك، فما كانت بيده أي حيلة لتحقيق دعواه. فإن ما نراه في الدنيا أن الناس يضحّون أحيانًا بأولادهم وإخوانهم وراحتهم ورخائهم من أجل أهدافهم المشروعة منها وغير المشروعة، ومع ذلك لا تحقق تضحياتهم أهدافهم إلا بنطاق محدود جدا، كما لا يقدمون أي ضمان لتحقيق هذه النتائج المحدودة أيضا. أما محمد رسول الله ﷺ فكما كانت دعواه غريبة جدًّا، كذلك كان جزاؤه أيضًا مذهلاً جدًّا. فبرغم أنه لم تتيسر له الأسباب لتبليغ رسالته إلى بلاد العالم كلها، إلا أن الله ﷻ وضَع له القبول بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، فأخذ دينه ينتشر في مختلف الشعوب والبلدان حتى وصل إلى أقصى أنحاء الأرض. فيوجد اليوم ملايين المسلمين في الصين، ويصل عددهم في إندونيسيا تسعين بالمئة، ويتراوح عددهم في القارة الهندية ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين بالمئة من السكان، ويقطن ملايين المسلمين في أفغانستان وإيران وبورما والشام وفلسطين والحبشة وفي وسط إفريقيا وغربها وشرقها وشمالها وجنوبها، وفي مناطق كثيرة في أمريكا وآسيا وأوروبا.

إذًا فإن ما يميّز نبينا ﷺ عن غيره من الرسل أنه مرسل إلى العالم أجمع، أما موسى عليه السلام فلم يُبعث إلا لهداية بني إسرائيل فقط.

ولما كانت قبضة فرعون الحديدية هي السبب الأساسي لرقّ بني إسرائيل، فبعث الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وحذّره أن آهات بني إسرائيل المضطهدين قد وصلت إلى عرش الرحمن، فليس أمامه خيار إلا أن يطلقهم من قبضته الحديدية

ويحررهم من حياة العبودية، وإلا سينـــزل الملائكة بسيوفهم من السماء وسيعاقبونه عقابًا شديدًا.

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢١﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾

التفسير: لقد قال فرعون هذا الكلام لموسى عليه السلام احتقارًا وسخرية، مثلما قال الكتبة والفريسيون للمسيح عليه السلام حين رأوه يقوم بدعوته ويرفع اسم الله الأحد في الشوارع والأسواق، حيث ورد: "أليس هذا ابن النجّار؟ أليست أُمُّه تُدعى مريمَ، وإخوتُه يعقوبَ ويوسي وسِمعان ويهوذا؟ أوليست أَخواتُه جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟ فكانوا يعثُرون به" (متى ١٣: ٥٥- ٥٧).

فكما أن الفريسيين استغربوا حين جاء يعظهم "ابن النجار" الذي كانت أخواته متزوجات بينهم، كذلك أصيب فرعون بالذهول حين جاءه موسى وهارون يبلّغانه رسالة الله، فقال بكل كبرياء: كيف يجرؤ علينا هذا الذي كانت أُمُّه قد ألقتْه في البحر خوفًا منّا، فأنقذناه وربّيناه في بيوتنا؟ وكيف يتنكر لصنيعنا هذا الذي قد عاش على لفاظات موائدنا، فلا يكترث لقوتنا وعظمتنا، بل يدعونا إلى الإذعان له؟

لقد قال فرعون هذا الكلام ناظرًا إلى قوّته ومنعته، وإلى بداية موسى المتواضعة، ولكنه نسي أن البذرة حين تلقى في الأرض تكون ضئيلة الشأن جدًّا، ولكنها تنمو وتكبر وتصبح دوحة كبيرة تحيّر الناس، وأن من الأشياء ما يبدو عظيمًا في بدايته،

ولكنه يعود ضئيل القدر في نهاية المطاف حتى يقول الإنسان في نفسه كيف عظّمت هذا الشيء الحقير؟ وعلى سبيل المثال، كان النبي ﷺ وأبو جهل متقاربين في السنّ، وقد وُلد النبي ﷺ في ظروف بسيطة جدًّا، حيث تُوفّي أبوه قبل ولادته، ولو كان حيًّا أيضًا عند ولادته ﷺ لم يتغير الوضع كثيرًا إذ لم يكن من الأثرياء! ولم يكن جدّه عبد المطلب أيضًا من الأغنياء. لا شك أنه كان ميسور الحال، ولكنه كان كريمًا جوادًا فلم يبق عنده من ثروته إلا قليل في آخر سني عمره. إذًا فلم يكن النبي ﷺ من أسرة ثرية أوّلاً، وقد وُلد في حالة فقر ثانيًا، وكان أبوه قد تُوفي قبل ولادته ثالثًا، فما كانت أُمه لتفرح كثيرًا عند مولده، إذ لم تملك مالاً، وأهل الدنيا ينظرون إلى ثراء المرء ويميلون إلى من عنده المال، فما كانوا ليُولُوا ولادته أهمية فيأتوا أُمَّه مهنئين بمولده، وربما لم يأت لتهنئتها إلا أقاربها الأقربون. وعلى النقيض كان والد أبي جهل رجلاً ثريًّا، فيمكنك تقدير مدى فرحته واحتفاله بولادة أبي جهل – علمًا أن أبا جهل كان يسمى أبا الحكم، ولكنه لما أكّد غباءه بمعاداة النبي ﷺ سماه المسلمون أبا جهل – فلا غرو أن كل أولئك الذين كانوا بحاجة إلى أبيه الثري أسرعوا إلى بيته يهنئونه بمولده مبالغين في كيل المدح له وقائلين: كم هي مباركة بلادنا التي قد وُلد فيها هذا الطفل الذي تدلّ أمارات وجهه على مستقبله المشرق! ولا ندري كم من جمال نُحرت، وكم من دفوف ضُربت، وكم من نساء غنّتْ احتفالاً بولادته. وربما كان القوم يمرّون عندها ببيت والد النبي ﷺ، ويقولون في أنفسهم: ها قد وُلد اليوم في بيت هذا الإنسان الفقير طفل سيعيش مغمورًا وسيموت مغمورًا، وإذا مرّوا ببيت والد أبي جهل قالوا: ها قد وُلد اليوم في بيت هذا السيد سيد آخر سيقوم في الدنيا بإنجازات عظيمة.

باختصار، كانت بداية النبي ﷺ جدّ متواضعة في الظاهر، أما نهايته العظيمة فحدِّثْ بها ولا حرج؛ فإن الطفل الذي رفضته المراضع، ولم يعبأ أهل مكة بولادته، كان له عند وفاته شأن عظيم جدا، ليس في تاريخ العرب فقط، بل في تاريخ البشرية كلها، فكأنما أصبح مصداقًا للنبوءة الإلهية الواردة في الصحف الأولى

كالآتي: "الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية" (مرقس ١٢: ١٠ ولوقا ٢٠: ١٧). فقد خضعت له القبائل العربية كلها التي لم تخضع لملكٍ قبله قط. ثم إن الناس يهابون ملوك الدنيا خوفًا من عظمتهم المادية، فيُثنون عليهم بلسانهم ويسبّونهم في قلوبهم، وتصاب البلاد بصدمة عند موت الملك بلا شك، ولكن الناس يقولون أيضًا: لا بأس، سيقوم مكانه ملِك آخر ويفعل ما فعله هذا؛ فهناك مثل إنجليزي بهذا المعنى يقول: The king never dies.

(3000 Proverbs by Sam Phillips P. 87)

.. أي أن الملك لا يموت أبدا، لأنه إذا مات ملكٌ قام مكانه ملكٌ آخر لا يكون بينهما فرق كبير، ويستمر الشعب – إذا كان شعبًا يقظًا – في الرقي والازدهار تحت حكم الملك الجديد أيضا. ولكن الأمر كان مختلفًا تمامًا فيما يخص النبي ﷺ، إذ كان العرب كلهم عند وفاته معترفين بمحاسنه وعظمته وأهميته، فلم يعتبروا موته موت إنسان واحد أو موت شعب واحد، بل اعتبروه موت العالم كلّه. لقد رثاه ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه بشعره الشهير:

كنتَ السوادَ لناظـــري فَعَمِي عَلَيَّ النَّاظـــرُ
مَن شاءَ بعـــدَك فَلْيَمُتْ فعليكَ كنتُ أُحَاذرُ

(ديوان حسان بن ثابت ص ٣٠٨)

أي كنتَ، يا رسول الله، حدقة عيني، فلم تمت أنت وإنما عميتْ عيني بموتك، فليمت الآن من شاء فإنما كنت أخشى موتك فقط.

هذه هي عاطفة الحب العميق التي كان الصحابة يكنّونها تجاه النبي ﷺ. والحقّ أن حسان بن ثابت رضي الله عنه لم يقل هذا الكلام على غرار الشعراء الآخرين، بل كان العرب كلهم يرون أن حسان إنما أعرب عن عواطفهم في شعره، كما يدلّ عليه التاريخ. لقد جرى على لسانه صوت العرب كلهم، إذ يذكر التاريخ أن المسلمين في مكة والمدينة وغيرهما من المدن ظلوا يرددون لأسابيع في بيوتهم وفي أسواقهم وأثناء أعمالهم:

كنتَ السوادَ لناظري فَعَمِي عَلَيَّ النَّاظـــرُ
مَن شاءَ بعدَكَ فَلْيَمُتْ فعليكَ كنتُ أُحاذرُ

أما أبو جهل الذي ذُبحت عند ولادته الجمال وقُدّمت شواءً لذيذا للناس، وظلَّ صوت الدفوف يدوّي أرجاء مكة لأسابيع، فقد قُتل في غزوة بدر شرّ قتلة، حيث أصيب بجراح بالغة على يد صبيّين أنصاريين يبلغان من العمر خمس عشرة سنة فقط. يروي عبد الله بن مسعود ﷺ أنه لما أخذ الناس يعودون من ساحة القتال إلى بيوتهم، خرجت أبحثُ عن الجرحى – علمًا أن عبد الله بن مسعود ﷺ كان من سكان مكة أصلا، فكان يعرف أبا جهل جيدا – وبينما أنا أمشي في ساحة القتال إذ أنا بأبي جهل يتأوّه من شدّة الجراح. فلما جئته قال لي: لا أراني ناجيًا من الموت، وقد اشتد بي الوجع، وحيث إنك من أرض وطني مكة، فاعمل لي معروفًا، وهو أن تضع النهاية لحياتي لتنتهي آلامي. وإني، كما تعلم، من الأسياد، ومن عادة العرب أنهم يقطعون رؤوس الأسياد من أصل الأعناق كدليل على سيادتهم، فأتمنى أن تقطع رأسي من أصل العنق. يقول عبد الله بن مسعود: فقطعتُ عنقه قريبا من الذقن، كي لا تتحقق أمنيته الأخيرة أيضًا. (البخاري: كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، والسيرة الحلبية*: المجلد الثاني ص ١٧٢)

فلو نظرت إلى العواقب لوجدت أن أبا جهل مات ميتة مخزية مزرية، فكان يمشي في حياته رافعًا عنقه من شدة كبريائه، فقُطعت عنقه عند ذقنه وقت الوفاة كي لا تتحقق أمنيته الأخيرة أيضا.

وكان الكافرون يحفرون في طريق النبي ﷺ حفرًا، وكانوا يجرّون المسلمين على أرض كثيرة الحصى والحجارة، وكان النبي ﷺ قد أنبأ أن هؤلاء الكافرين سيؤخذون بالنواصي ويُجَرّون، وبالفعل جرّ الصحابةُ بأمر النبي ﷺ جثث الكافرين

* نص ما ورد في السيرة الحلبية: "عن ابن مسعود ﷺ قال: لما ضربتُه بسيفي لم يغن شيئًا، فبصق في وجهي وقال: خُذْ سيفي فاحتزّ به رأسي من عرشي ليكون أنهى للرقبة – والعرش عرقٌ في أصل الرقبة – ففعلت." (المترجم)

يوم بدر وألقوها في بئر عمياء. (سورة العلق:١٦-١٧، والسيرة النبوية لابن هشام: الجزء الثاني، ذكرُ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب)

باختصار، لو نظرت إلى النبي ﷺ وإلى أبي جهل من حيث الولادة والخاتمة، لوجدت أن الذي كان لا يؤبه له عند ولادته مات وهو سيد العرب، أما الذي كانوا يرونه سيد العرب عند ولادته فتبين لهم عند وفاته أنه أرذل القوم وأذلّهم. فثبت أن من الأشياء ما يكون في بدايته على غير ما يكون عند نهايته.

لا شك أن والدَي المسيح الموعود عليه السلام فرحوا بمولده كثيرا، ولكنه لما كبر وزهد في الدنيا، كان أبوه يتحسر عليه حزنًا بأن ابنه لا يصلح لشيء. لقد حكى لي أحد السيخ وقال: كان أبي يأتي لزيارة الميرزا الكبير - يعني جدّي ميرزا غلام مرتضى - وكان يصطحبني أنا وأخي أحيانًا. فقال له الميرزا الكبير مرة: إن ولديك هذين يزوران ابني غلام أحمد، فقل لهما أن ينصحاه. فأمرنا أبونا بذلك. فلما هممنا بالانصراف إليه قال لنا الميرزا الكبير: قولا لغلام أحمد: إن أباك حزين بسببك حيث يرى أنك ستعيش بعده على كسرات خبز أخيك الأكبر! فعليك أن تتوظف في وظيفة في حياته، لأن جميع مصادر دخله ستنقطع بموته، وإنه يحاول في هذه الأيام أن يجد لك وظيفة جيدة - علمًا أن أباه عليه السلام كان يسعى في تلك الأيام أن يجد له وظيفة في ولاية "كبور تهلة"، وبالفعل كانت هذه الولاية قد اتخذت القرار بتعيينه عليه السلام مديرًا في مديرية التعليم فيها. وأضاف هذا السيخي: فذهبت أنا وأخي إلى ميرزا غلام أحمد (عليه السلام)، وقلنا له: إن أباك قلق عليك جدًّا، ويقول: ماذا سيكون مصير غلام أحمد بعد وفاتي إذ ليس عنده أي عمل؛ فلمَ لا تستجيب لرغبة والدك. فأجاب: إن والدي قلق عليّ بدون داع، ويخاف عليّ بلا سبب، إذ قد توظّفت سلفًا عند مَن أردت العمل عنده. فرجعنا وحكينا لأبيه الحديث الذي جرى بيننا. فقال أبوه: إذا كان هو يقول هكذا فلا بد أن يكون حقًّا، لأنه لا يكذب أبدًا.

هكذا كانت بدايته عليه السلام. ولا شك أن الأمر لم يبلغ النهاية بعد، ولكن ما قد تم حتى وفاته عليه السلام هو أن آلاف الناس كانوا يفدونه بأرواحهم. لقد قال حضرته عليه السلام في بيت شعر له:

لُفاظات الموائدِ كان أكلي وصرتُ اليومَ مِطعامَ الأهالي

(آئينه كمالات إسلام (أردو)، الخزائن الروحانية، المجلد الخامس ص ٥٩٦)

أي لقد أتى علي زمان كنت أعيش فيه على كسرات الخبز المتبقية على موائد الناس، أما اليوم فتعيش مئات الأسر على مائدتي. لقد كانت بدايته ضئيلة حقًّا، ولكن عند وفاته كان يأكل في دار ضيافته يوميًا ما بين مائتين ومائتين وخمسين شخص، إضافةً إلى الإخوة الذين كانوا يقومون بشتى الخدمات الدينية.

الواقع أن حضرته عليه السلام كان شريكا متساويا مع أخيه في إرث والده، ولكن من عادة أصحاب الأراضي أنهم لا يعدّون شريكًا معهم في العقارات إلا من يعمل معهم، ومن لا يعمل معهم لا يعدّونه شريكا فيها وإن كان وارثًا عند الشرع. ولا تزال هذه العادة موجودة عندهم حتى اليوم، حيث يقولون كيف يكون لأحد نصيب في العقار وهو لا يعمل معنا؟ ولذلك فكلما جاء عند المسيح الموعود عليه السلام ضيف وأرسل إلى زوجة أخيه لتبعث للضيف طعامًا، قالت: كيف يأكل هذا عندنا مع أنه شخص عاطل لا يقوم بأي عمل! فكانت ترفض أن تبعث أي طعام للضيف، فكان حضرته يُقدم طعامه للضيف ثم يجوع بنفسه، أو يأكل حبات قليلة من الحمص. ومن غرائب قدر الله سبحانه وتعالى أن زوجة أخيه هذه التي كانت تعامله بازدراء، بايعتْ في الأخير على يدي أنا وانضمتْ إلى الأحمدية.

فالحق أن بداية العمل الذي يكون من عند الله سبحانه وتعالى تكون ضئيلة جدًا، ولكن نهايته تحيّر العالم، ولذلك نجد فرعون يعيّر موسى عليه السلام بضآلة شأنه في بداية أمره، ويقول له: كيف تجرؤ على وعظي؟ ألستَ ذلك الذي تربى في بيتنا؟ ولكن الواقع أن الأمور بخواتيمها لا ببدايتها. خذوا مثلا بذرة الشجرة التي تسمى "تين البنغال". لا شك أن الذي يستهين ببذرتها الصغيرة يُعَدّ غبيًّا، ولكن الأشد منه غباءً مَن يرى بأمّ عينه شجرة "تين البنغال" وقد أصبحت دوحة كبيرة يستظل مئات الناس تحت ظلها المريح، ومع ذلك يرفض الجلوس تحت ظلها بحجّة أن بذرتها كانت صغيرة حقيرة تذروها الرياح.

لقد أبدى فرعون أيضًا نفس الغباء حيث عيّر موسى عليه السلام بكونه قد تربّى في بيته. ولكنه نسي أن من سنة الله القديمة أنه يكتب لأنبيائه الرقي والغلبة تحت ظل أعدائهم. فقد تربى المسيح الناصري عليه السلام تحت حكم الرومان. وتربى النبي ﷺ في صغره عند بني ثقيف، وهم الذين أمدّوا أبرهة بدليل يهديه الطريق لما جاء لهدم الكعبة (السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، أمر الفيل، وقصة النسأة، ثقيف تمادن أبرهة، البداية والنهاية، للإمام إسماعيل بن كثير الدمشقي، الجزء الثاني، فصل إقامة ست قبائل من سبأ في اليمن، سبب قصر أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة). ومع ذلك هيأ الله سبحانه وتعالى عندهم الملاذ لهذا الإنسان العظيم الذي كان مصداقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام والغاية الحقيقية وراء بناء الكعبة. كما أتاح الله تعالى لصحابة النبي ﷺ الملاذ عند الدولة المسيحية في الحبشة، مع أن أبرهة كان أحد ولاة هذه الدولة. وقد اتخذ الله سبحانه وتعالى نفس التدبير في هذا الزمن أيضا حيث بعث المسيح الموعود عليه السلام تحت الحكومة الإنجليزية المسيحية، مع أن الله تعالى قد بعثه للقضاء على المسيحية. يعترض الجهّال على بعثته عليه السلام تحت حكم الإنجليز، ولكنهم لا يرون أن الله سبحانه وتعالى قد ربّى موسى عليه السلام في كنف فرعون، وهيأ الملاذ لصحابة النبي ﷺ عند مملكة مسيحية، وجعل النبيَّ ﷺ يتربى عند بني ثقيف الذين ساعدوا أبرهة في الهجوم على الكعبة. فإذا كانت تربية هؤلاء كلهم تحت ظل أعدائهم لا يقدح في صدقهم، فكيف أصبح ازدهار المسيح الموعود عليه السلام تحت حكم الإنجليز موضع اعتراض؟ كلا، بل إنه لمن آيات الله العظمى أنه يبعث أنبياءه تحت حكم أعدائهم، ثم يكتب لهم الغلبة والازدهار، وهكذا يبرهن للدنيا أن لا مانعَ لما أراد عز وجل. خذوا مثلا ما حدث لموسى عليه السلام، فكان فرعون قد أمر بقتل كل وليد يولد عند بني إسرائيل، ومع ذلك جعله الله تعالى يربّي موسى في بيته.. فكأن الذي كان المواليد يُقتَلون من أجله قد تربّى في حضنه موسى وترعرع، ثم تسبب في دماره أيضا. فإن والدة موسى عليه السلام قد قذفته في النهر وهو وليد صغير موقنةً بوعد الله تعالى. لا شك أنها قد اتخذت تدابير كثيرة قبل إلقائه في النهر، ولكن من ذا الذي يجرؤ على إلقاء طفله الصغير في النهر وإن اتخذ أفضل مما اتخذته أم موسى من التدابير؟ ولكن أم موسى رضيت بموت ابنها امتثالا لأمر الله تعالى،

فكتب الله له الحياة الأبدية. لقد أنقذ الطفلَ من الغرق أولاً، ثم أوصله إلى بيت فرعون، حيث أكل وشرب في بيته، وترعرع لاعبًا في حضنه، وفي الأخير استطاع أن ينقذ جميع بني إسرائيل من قبضته، بينما غرق فرعون مع جنوده في اليم.

وبعد أن عيّر فرعونُ موسى عليه السلام بتربيته في أسرته، قال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.. أي أنك تعلم جيدًا أنك قتلت شخصا من قومنا. وليس المراد من الكفر في قوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الكفر العادي، بل المراد أنك قد أصبحت ناكرًا للجميل حيث قتلتَ نفسًا من قوم أحسنوا إليك.

فأجابه موسى عليه السلام ألا يتهمه بدون النظر إلى ملابسات الحادث كلها. لا شك أن القتل قد صدر منه، ولكن: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.. أي قد تم القتل من فرط حبه لقومه، حيث وجد شخصًا من أعدائه يعتدي على فرد من قومه المظلومين، فثارت حميته، فتصدى للظالم، فمات ولكن دون قصد منه.

إن ما يشير إليه فرعون هنا هو نفس الحادث الذي سبق ذكره حيث وجد موسى عليه السلام في إحدى الليالي مصريًا يقاتل أحدًا من قومه، فاستغاثه الذي من قومه، فرأى أنه إذا لم ينصر أخاه الإسرائيلي فسوف يُقتَل، فتقدم ولَكَمَ المصريَّ لكمة، فإما أن موسى عليه السلام تحمَّس وضربه ضربة شديدة، أو أنه كان ضعيف القلب؛ فمات في مكانه. وهذا ما عيّر به فرعونُ موسى وقال: لقد ربيناك عندنا كأولادنا، فتنكرت لصنيعنا وقتلتَ شخصًا من قومنا. فقال له موسى عليه السلام: لا تتهمني بدون النظر في كل الملابسات. صحيح أن الرجل مات بيدي، ولكن المهم أن ترى فيما إذا كنتُ قتلتُه عمدًا أم لا، وليس هل قتلته أم لا؟ فإذا كانت الملابسات تفرض عليّ نصر مظلوم من قومي، فلا تثبت إدانتي وإن ثبت قتل شخص بيدي. إنما تثبت جريمتي إذا كنت هاجمته قاصدًا قتله، ولكني لم أرد قتله، فكيف أُدان بجريمة القتل؟ كل ما في الأمر أنني نصرت فردًا من قومي المضطهدين، فمات بيدي شخص من القوم الحاكمين، فخفتُ أن لا يُنصفوا في قضيتي، فأتعرض للعقاب؛ ففررت منهم، ولكن ربي الذي كان مطلعا على أسراري برّأ ساحتي، وأنزل شريعته علي وبعثني رسولا. أما تربيتكم إياي التي تمنُّ بها عليّ، يا فرعون، فلا تساوي أمام جريمتكم

شيئًا، حيث اتخذتم قومي بني إسرائيل عبيدًا منذ زمن أبيك رعمسيس الثاني، وتسخروهم في أعمال شاقة بدون أجر، وتصبّون عليهم من الفظائع ما يندى له جبين الإنسانية. فما قيمة تربيتكم طفلاً بينكم إزاء تسخيركم شعبًا كله ذكورًا وإناثًا وأطفالاً في أعمال شاقة وحشية؟

علمًا أن فرعون الذي قام بتربية موسى عليه السلام اسمه رعمسيس الثاني (الخروج ١: ٨-١٧) أما فرعون الذي ذهب إليه موسى عليه السلام بعد النبوة فهو ابنه منفتاح (الموسوعة اليهودية المجلد الثامن تحت كلمة: Merneptah). لقد رأى الأخير موسى يتربى في القصر الملكي، وكان يعلم كيف قام أبوه بتربيته بكل حب ولطف، ولذلك عيّر موسى عليه السلام مشيرًا إلى ما كان يخصّه به أبوه من حب وحنان: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾. وفي الجواب أخذ موسى عليه السلام يذكر له الفظائع التي كان يرتكبها أبوه ضد بني إسرائيل حيث أمر بقتل ذكورهم واستحياء إناثهم من المواليد. ولما خلف منفتاح أباه على العرش ظل يضيّق الحياة على بني إسرائيل مثل أبيه، حتى إذا بلغ صراخهم المؤلم إلى السماء وهزّ عرش الرحمن بعث الله موسى لإنقاذ هؤلاء المضطهدين المستعبَدين، وأمره أن يذهب إلى فرعون ويطالبه بإطلاق سراحهم. ولكن فرعون بدلاً من أن يرتدع عن ظلمهم ويفك أسرهم أخذ يعير موسى قائلا: ألست الذي تربيت على خبزنا، وقد جئت اليوم تعظنا؟ فأجابه موسى عليه السلام: صحيح ما تقول، ولكن هل يبرر هذا ما تصبّه على بني إسرائيل من الفظائع. هل تربيتُكم إياي تخوّل لكم استعباد قومي وإكراهَ عباد الله الذين هم بشرٌ مثلكم على حياة الذل والهوان؟

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ

أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾

التفسير: عند سماع هذا الجواب من موسى عليه السلام حاول فرعون إخفاء ندامته، فغيّر مجرى الحديث وقال: حسنًا، مَن هو رب العالمين الذي تقول إنه بعثك رسولاً؟ قال: إن رب العالمين هو رب السماوات والأرض وما بينهما، ويجب أن يكفيك هذا الدليل إن كنت من الموقنين. فتوجَّه فرعون إلى من حوله وقال: هل تسمعون هراء هذا الشخص؟ قال موسى عليه السلام: إذا كنت لا تفهم من هو خالق السماوات والأرض فاعلم أن رب العالمين هو رب آبائك الأولين. فبُهت فرعون من قوة هذا الدليل ولجأ إلى الشتم والسب وقال لأصحابه: لا شك أن هذا الذي قد أُرسل إليكم لمجنون. وكان يعني أنني أنا ربُّكم - كما هو مذكور في سورة النازعات - فكيف يزعم موسى أن هناك إلهًا غيري هو رب العالمين. وحيث إنه مصرٌّ على دعواه رغم أنني قد أخبرته بمعتقدي فيبدو أنه مصاب في عقله.

الواقع أنه لم يأت إلى الدنيا نبي من عند الله تعالى إلا ورماه المعارضون بالجنون. ذلك لأن المجنون يبذل قصارى جهده فيما يريد القيام به غير مكترث للعواقب، كذلك يفعل النبي أيضًا حيث يهبّ لتبليغ رسالة الله تعالى باذلاً كل ما في وسعه، ومعرضًا عن كل إغراء، وغير مكترث للعواقب، فيسميه الجاهلون مجنونًا حيث يرونه يعمل بكل حماس وتفان في سبيل هدفه الذي يبدو خلافًا للعقل والمنطق في الظاهر، ولا يستطيعون رؤية يد الله التي تشدّ ظهره، فيسمونه مجنونًا.

لقد قال علماء النفس في معرض الحديث عن أنواع الجنون إن المجنون ينهمك في تحقيق هدفه غاضًا النظر عن الظروف المحيطة به، وغير مبال بأي شيء. أتذكر أن إحدى المعلّمات أصيبت بالجنون في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه، وكانت تتخلل مرضها فترات من الصحة أيضًا. وذات مرة كان حضرته رضي الله عنه يلقي دروس القرآن الكريم للنساء، وكانت هذه المعلمة جالسة بينهن، فانتابتها نوبة من الجنون، فحاولت القفز

من النافذة، فرآها الخليفة الأول ﷺ وقد أوشكت على السقوط، فقام مسرعًا وأمسكها. وقد وقع هذا الحادث بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام ببضعة أشهر وقبل أن يصاب الخليفة الأول ﷺ بجروح بالغة نتيجة سقوطه من ظهر فرس، وكان عندها لا يزال يتمتع بالقوة والحيوية حتى إنه كان يمد يده للحاضرين أحيانًا ويقول: فليتقدم من شاء وليحاول ثَنْيَ يدي. ورغم كونه ﷺ قويًا لهذه الدرجة لم يستطع حضرته منع هذه المجنونة النحيفة المتدلية في النافذة من السقوط، حيث كانت تنفلت من يده. فدعا النساء ليساعدنه لأن المجنونة على وشك السقوط. فأتت خمس أو سبع منهن، فربطها بالحبال بمساعدتهن، وذلك برغم أن أيّ فتى عمره سبعة أو ثمانية عشر عامًا كان قادرًا على البطش بهذه المجنونة في حالة صحتها. وليس سبب ذلك إلا لأن الإنسان السليم العقل يظن أنه لو بذل الجهد أكثر من حد معين لأصابه ضرر، ولكن المجنون لا يمنعه عقله عن بذل كل ما في وسعه، ومن أجل ذلك نجده مشحونًا بقوة غير عادية حتى لا يقدر على البطش به إلا ثمانية أو عشرة أشخاص معًا. فبما أن المجانين يعملون أحيانًا بحماس غير عادي لا يصدّقه العقل، فإن الناس حين يرون الأنبياء يرفعون صوتًا مخالفًا لتيار زمنهم، ثم إنهم يحاولون تحقيق هدفهم غير مكترثين للموت في هذا السبيل، فيعتبرونهم مجانين إذ يقولون لو كان هؤلاء عقلاء ما رفعوا الصوت ضد الرأي العام. لما بُعث النبي ﷺ دعا أهل مكة إلى عبادة الإله الواحد، فحيّر العربَ الذين كانوا يعبدون اللات والعُزّى ومَناةَ، فقالوا إنه لمجنون حيث جعل الآلهة الكثيرة إلهًا واحدًا. فاعتبروا ما قاله النبي ﷺ ضربًا من الخبل والجنون ليس إلا.

ثم إن العرب كانوا يسمونه ﷺ مجنونًا أيضًا لأنه كان ينهاهم عن شرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل أموال الناس بالباطل؛ فكانوا يقولون مستغربين: ما لهذا الرجل يمنعنا من الخمر التي هي لذة الحياة، وينهانا عن الميسر أو النهب مع أنه عمل نافع جدًّا، إن هو إلا هراء يتكلم به المجانين. كما كانوا يقولون: ما لمحمد يدعونا إلى أن ننذر حياتنا لخدمة الإنسانية، وننفق أموالنا في سبيل الله بوعد الثواب منه؟ إنه كلام لا يتكلم به إلا مجنون.

وكان شعيب عليه السلام ينهى قومه عن السطو على أموال الناس وعن إنفاق أموالهم في غير الحق، فكانوا يصابون بالذهول ويقولون له: لقد أصابك مس من الجنون ولذلك تتكلم كما يتكلم المجانين.

وفي هذا العصر أيضًا نرى أن الناس قد رموا المسيح الموعود عليه السلام بالجنون. فعندما قدم للناس مسألة وفاة المسيح الناصري عليه السلام أصابهم الذهول والدهشة، إذ قالوا ما دام أكابر الأمة يقولون منذ ثلاثة عشر قرنًا إن المسيح عليه السلام حي في السماء، فكيف يقول هذا بوفاته؟ وما أدلّ على ذلك من الحادث التالي:

كان في البنجاب طبيب شهير جدًّا حتى إن طبيبًا عظيمًا كمثل الخليفة الأول رضي الله عنه أيضًا كان معترفًا بمكانته الطبية، وكان من مدينة "بهيرة"، وكان اسمه "الله دين". فذهب إليه المولوي فضل دين البهيروي - الذي كان من الأحمديين المخلصين وكان صديقًا حميمًا للخليفة الأول رضي الله عنه - فحاول تبليغه دعوة الأحمدية. فقال له: ماذا ستخبرني عن الأحمدية؟ وماذا تعرف عنها؟ وماذا ستعلّمني عنها؟ لا يوجد عندك عُشر ما أكنّه لحضرة الميرزا[٥] من الحب والاحترام. فسُرّ المولوي فضل دين من قوله وظن أنه يؤمن بحضرته عليه السلام في قلبه، فقال له: إنه لمن دواعي سروري أنك تحب مؤسس جماعتنا، وأود أن أسمع منك المزيد. فقال له الطبيب: إن الشباب الأغرار في هذا العصر لا يعرفون حقيقة الأمر ومع ذلك يتحمسون لدعوة الآخرين بدون داع. فكيف تجاسرت على شرح مسألة وفاة المسيح لي وأنت لا تعرف الحكمة التي دفعت حضرة الميرزا إلى تقديم نظرية وفاة المسيح عليه السلام. فقال له المولوي فضل دين: هلا أخبرتني بتلك الحكمة؟ قال: اسمَعْ. الواقع أن حضرة الميرزا قد قام بتأليف "براهين أحمدية"، والحق أنه لم يؤلف أحد من المسلمين منذ ثلاثة عشر قرنًا كتابًا مثله. لقد ملأه بعلوم ومعارف لا يوجد لها مثيل في كتاب أي مسلم، فكان "براهين أحمدية" سدًّا منيعًا قام بحماية الإسلام ضد هجمات أتباع

[٥] أي حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. (المترجم)

الأديان الأخرى. ولكن قد بلغ الحمق والغباء بالمشايخ درجة أنهم عوضًا عن أن يشكروه ويأتوه متأدبين كالتلاميذ ويقولوا له: سنستعمل ضد أعداء الإسلام نفس الأدلة والبراهين التي ذكرتها في كتابك، فإنهم استكبروا فرحين بما عندهم من العلم، وأفتوا بكفر هذا الإنسان الذي قد أسدى للإسلام، وأمام أعينهم، هذه الخدمة العظيمة التي لم يُسْدِها إليه مسلمٌ بعد النبي ﷺ خلال ثلاثة عشر قرنًا مضت. فكان من الطبيعي أن يغضب حضرة الميرزا، فقال لهم: إذا كنتم فرحين بما عندكم من العلم فتعالوا لمبارزتي. وقال لهم: لا شك أن عقيدة حياة المسيح عليه السلام ثابتة من القرآن الكريم بحيث إنه لمن شبه المستحيل إثبات وفاته منه، ومع ذلك فإني أُثبت لكم وفاته من القرآن، فادحضوا موقفي إن كنتم صادقين. فالواقع أنه لم يقدم نظرية وفاة المسيح عليه السلام إلا ليبكّت المشايخ ويفضحهم، ثم راح يقدم الأدلة من القرآن الكريم على وفاة المسيح. والآن لن يستطيع مشايخ الهند كلها دحض أدلته مهما حاولوا لذلك وإن انكسرت أقلامهم وجُرحت ألسنتهم. لقد هزمهم هزيمة نكراء لن يقدروا بعدها على رفع رؤوسهم ثانية. وليس أمامهم الآن سبيل لحل هذه المعضلة إلا أن يذهبوا إليه كلهم على شكل وفد ويعتذروا إليه ويقولوا: إنهم قد أساءوا الأدب تجاهه بإصدار فتوى كفره، فليعف عنهم. وسوف يرون أن حضرة الميرزا سيثبت لهم حياة المسيح عليه السلام من القرآن الكريم نفسه!

ومن هنا يمكنك أن تدرك مدى يقين المسلمين بصحة عقيدة حياة المسيح عليه السلام. فرغم أن هذا الرجل كان واثقًا من حسن نوايا حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام ومعترفًا بكونه أكبر خادم للإسلام منذ ثلاثة عشر قرنًا، إلا أن عقله لم يرض بوفاة المسيح عليه السلام كما أثبت مؤسس الأحمدية، بل ظن أن حياة المسيح عليه السلام حقيقة ثابتة من القرآن الكريم، وأن حضرته إنما قدم هذه النظرية تبكيتًا للمشايخ فحسب. وإذا كان هذا هو أسلوب التفكير عند رجل كان واثقًا بسلامة نوايا حضرته عليه السلام ومعترفًا بكونه أكبر خادم للإسلام، فما بالك بقوم كانوا يعتبرونه عدوًا للإسلام؟ فكان طبيعيًا أن يعتبروه مجنونًا.

وكذلك لما عرض المسيح الموعود عليه السلام على المسلمين نظريته عن الجهاد، معلنًا أن الجهاد قد تغيّر شكله الآن، حيث يقتضي هذا العصر أن ننشر الإسلام بالدعوة والتبليغ وإشاعة الكتب، أخذهم حيرة وقالوا كيف يمكن أن يتغلب الإسلام على العالم بهذا الطريق؟ كانوا يرون أن السبيل الوحيد لازدهار الإسلام هو قتل غير المسلمين، فلما سمعوا حضرته عليه السلام يقول إن غلبة الإسلام لن تتم بقتل غير المسلمين بل بالتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الإسلام قالوا: إنه مجنون حيث يقدم هذه النظرية المنافية للعقل.

وهذا السلاح نفسه قد استعمله فرعون أيضًا، فلما رأى أنه قد عجز عن دحض أدلة موسى عليه السلام قال إنه مجنون يهذي.

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

ثعبان: الثعبان: ضربٌ من الحيّات طِوالٌ. (الأقرب)

التفسير: لما رمى فرعون موسى عليه السلام بالجنون أدرك موسى أنه يحاول تغيير الموضوع الأساس وإرباكه في النقاش، ويريده أن يترك الحديث عن رب العالمين

ويرد على ما وجهه إليه من تهمة شخصية فيقول له: كيف تسميني مجنونًا ولا يوجد عندي شيء من أعراض الجنون. فرأى موسى أن من الأفضل أن يستمر في نقاش الموضوع الأصلي ولا يرد على سبّ فرعون إياه، فقال: إن رب العالمين هو ذلك الإله الذي هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.. بمعنى تزعم يا فرعون أنك رب المصريين، مع أن مصر لا تساوي شيئًا أمام باقي العالم، إذ توجد فيه مئات البلدان التي هي أكبر من مصر بكثير. ولو سلّمنا جدلاً أنك يا فرعون تقوم برعاية أهل مصر، فمن ذا الذي يرعى أهل المشرق والمغرب وما بينهما؟ إن الذي يرعى العالمين كلها هو رب العالمين، ولا يمكن أن تكون رب العالمين حيث إنك تدعي بنفسك أنك رب المصريين.

فاستشاط فرعون غضبًا فقال لموسى عليه السلام: عليك أن تؤمن بأنني أنا الإله وإلا فلسوف أزجّك في غياهب السجن لتعلم جزاء وقاحتك. ومن غرائب القدر أن الذي أراد أن يلقي موسى في سجن القضبان الحديدية ألقاه الله تعالى في سجن الأمواج المتلاطمة في البحر الأحمر، فلم يستطع الخروج منه رغم جنوده وأنصاره.

وعندما هدد فرعون موسى بالسجن قال: أتسجنني ولو أتيتك بدليل واضح على صدق ما أقول؟ فعلم فرعون أن أمامه فرصة سانحة للتخلص من النقاش الأساس ولو مؤقتًا، فقال: فأْتِ به إن كنت من الصادقين. فألقى موسى عليه السلام عصاه على الأرض، فرآها الناس ثعبانًا بشكل واضح. ثم نـــزع موسى يده من جنبه، فبدت مضيئةً لامعة للناظرين.

وليكن معلومًا هنا أن تحوُّل عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان مبين ورؤية الناس يده مضيئة نيّرة إنما هو من قبيل الكشوف التي أشرك الله فيها فرعون وأصحابه أيضًا. وهذا من الحقائق الثابتة المسلم بها، وتوجد نظائرها بكثرة في تاريخ الأنبياء والأولياء حيث يوسّع الله تعالى نطاق مشاهد الكشوف أحيانًا فيراها غيرهم أيضًا. ومثاله معجزة انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ إذ كانت مشهدًا من الكشف الذي وسّعه الله تعالى حتى رآه قوم من أهل مكة (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى وانشق القمر). وليس هذا فحسب، بل قد شاهده ملكٌ من ملوك الهند أيضًا فأسلم، كما

ورد في التاريخ (تاريخ فرشته (أردو) مجلد ٢ مقالة ١١ ص ٤٩١). ولكن المفسرين لم يفهموا هذه الحقيقة، فظنوا أن القمر قد انشق وصار قطعتين حقيقةً. مع أن الواقع أن القمر ظل على حاله، ولكنه أُرِيَ وكأنه قد انشق، تمامًا كما أن عصا موسى ظلت عصًا ولكنها أُرِيتْ لفرعون وملئه كأنها ثعبان مبين. وحيث إن كل حلم وكشف يتطلب تعبيرًا فكان تعبير هذا الكشف أن الانقلاب العظيم الذي سيتم على يد محمد ﷺ وشيك، وأن سلطة الكافرين على الجزيرة العربية قد حان زوالها. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى نفسه بقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾(القمر:٢).. أي قد حان دمار العرب، ودليله أن القمر قد انشق. ففي هذه الآية دلالة واضحة على أن هناك صلة وثيقة بين اقتراب الساعة وانشقاق القمر، ولكنا لا نجد أية علاقة ظاهرة بين اقتراب الساعة وانشقاق القمر. إذ لو كانت بينهما علاقة ظاهرة فكان من المفروض أن تقوم القيامة عندها، ولكنها لم تقم حتى اليوم رغم مرور ثلاثة عشر قرنًا على حادث انشقاق القمر، في حين نجد الله تعالى يقول لقد اقتربت الساعة ودليله أن القمر قد انشق. فثبت أن المعنى الذي يفسر به انشقاق القمر عادةً معنى خاطئ، كما أن المعنى الذي يفسَّر به لفظ "الساعة" أيضًا خاطئ. الحق أن الساعة تُطلق في القرآن الكريم على زمن بعثة الأنبياء وغلبتهم وازدهارهم وعلى هلاك معارضيهم ودمارهم. وعليه فإن هذه الآية تعني أنه قد حان الآن أن تحل تلك الساعة المقدرة ببعثة النبي ﷺ والانقلاب المنوط به، وعلامته أنْ قد انشق القمر.

وقد ذكر الله تعالى هذه العلامة لأن القمر كان رمزًا لحكم العرب حيث تروي صفية – رضي الله عنها التي كانت بنتًا لأحد رؤساء اليهود والتي صارت فيما بعد من أزواج النبي ﷺ – أنها رأت في المنام مرة أن القمر قد سقط في حِجرها. فحكت رؤياها لأبيها، فلطمها لطمة شديدة وقال: تريدين الزواج بملِك العرب؟ (الإصابة: كتاب النساء، حرف الصاد•)

• ورد في المصدر المشار إليه أعلاه أنها حكت رؤياها لزوجها وفي مكان آخر لأمها. (المترجم)

لقد ثبت بذلك أن العرب كانوا يعنون بالقمر سلطانهم.

فكان المراد من رؤية النبي ﷺ انشقاقَ القمر قطعتين في الكشف اقتراب هلاك العرب الكافرين، ذلك لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا هدفًا للاضطهاد منذ فترة طويلة، فبشّرهم الله ﷻ بإراءة انشقاق القمر أن غلبة الإسلام موشكة.

وهذا المشهد لم يره النبي ﷺ فقط، بل قد رآه الكافرون أيضا ليعلموا أن اندحار الكفر قريب، وأن محمدا ﷺ رسول الله حقًّا.

وقد اعترف المسيح الموعود عليه السلام أيضا باتساع نطاق الرؤى والكشوف على هذا النحو وذلك خلال بحث مستفيض عن هذه المعجزة في كتابه "سرمه چشم آريا" حيث قال ما تعريبه:

"من الممكن أيضا أن يكون الراءون قد أُعطوا عيونا كشفية نتيجة تأثير القوة القدسية للنبي ﷺ، حيث أراهم الله تعالى بهذا الحادث كيفية الانشقاق الذي سيحصل عند قرب القيامة. وإنه من الحقائق الثابتة أن قُوى المقرّبين الكشفية تؤثّر أحيانًا في الآخرين أيضا عند شدّها وحدّها، وهناك نظائر كثيرة لذلك في وقائع أرباب المكاشفات، حيث أرَى بعضُ الأكابر نفسه في بلدين مختلفين ومكانين متغايرَين في آن واحد بإذن الله ﷻ." (سرمه چشم آريا(أردو)، الخزائن الروحانية المجلد الثاني ص ٢٧٧-٢٧٨)

ويقول عليه السلام أيضا ما تعريبه:

"تنكشف على أصحاب المكاشفات أمور يعجز العقل تمامًا عن إدراك كُنْهها. فيرى صاحب الكشف في بعض الأحيان شيئًا رؤية واضحة وهو على بعد مئات الأميال وبينهما شتى الحجب، بل أحيانًا يسمع صوته أيضا في حالة اليقظة بإذن الله تعالى. والأعجب من ذلك أن الشخص الآخر الذي يراه صاحب الكشف أيضا يسمع صوته في بعض المرات. يلقى صاحب الكشف أحيانا أرواح السابقين في حالة كشفه الذي يماثل حالة اليقظة إلى حد كبير. وعلى العموم يمكن اللقاء بالأرواح السعيدة أو الأرواح الشقيّة أيضًا فيما يُسمّى "كشف القبور"، وإن صاحب هذا المقال لذو خبرة في هذا المجال. وهذه الظاهرة تقضي على عقيدة

التناسخ الهندوسية قضاءً مبرمًا. والأعجب من كل هذا أن صاحب الكشف يظهر أحيانًا لشخص آخر من خلال تركيزه عليه بإذن الله ﷻ في حالة اليقظة، مع أنه يكون بينهما مسافة مئات الأميال بدون أن يتحرك جسد صاحب الكشف من مكانه. ووجود شيء في مكانين في وقت واحد محال عند العقل، ولكن هذا المستحيل ممكن الوقوع في هذا العالم الآخر." (المرجع السابق ص ١٧٨)

وقد وقعت للرسول ﷺ أيضا كشوف اشترك معه فيها الآخرون. فمثلا ورد في الحديث أنه بينما النبي ﷺ في مجلس مع أصحابه جاءه شخص غريب ليست عليه آثار السفر، فجلس بمحاذاته ﷺ ملصقا ركبتيه بركبتيه، وسأله: ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ وما الإحسان؟ وما هي أمارات القيامة؟ فأجابه النبي ﷺ على كل سؤال، فذهب. فقال النبي ﷺ لأصحابه: "ذلك جبريل أتاكم يعلّمكم أمر دينكم". (الترمذي أبواب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام).

فهذا الحادث أيضا كان من قبيل هذه الكشوف حيث تم توسيع نطاقه حتى رأى الصحابة أيضًا جبريل يتحدّث مع النبي ﷺ.

كذلك لما أنـــزل الله تعالى ملائكته لنصرة المسلمين في غزوة بدر، رآها الصحابة في حالة الكشف، كما رآها الكفار أيضا، حتى تحدثوا عنها في مجالسهم مـــتحيرين (تفسير ابن جرير، تفسير آية ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (آل عمران:١٢٥)، السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثالث، ذكر رؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب، الملائكة تشهد وقعة بدر)

وكذلك رُوي أن النبي ﷺ عندما كان عند مرضعته حليمة جاءها أحد أولادها يجري وقال: إن أناسًا قد هجموا على أخي محمد (ﷺ). فخرجتْ مسرعة، فوجدت النبي ﷺ جالسا. فسألتْه عما حدث؟ فقال ﷺ: جاءني قبل قليل ثلاثة نفر، فشقّوا صدري وغسلوا قلبي وأعادوه في مكانه وذهبوا. (السيرة النبوية لابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته)

وهذا الحادث أيضا كشف رآه النبي ﷺ واشترك فيه معه أحد أولاد حليمة حيث إن الملائكة ليست بحاجة إلى أن يشقّوا قلب أحد شقا ظاهرا من أجل تطهيره.

كذلك تقول ميمونة – رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ نائما عندي في إحدى الليالي في المدينة، فاستيقظ لصلاة التهجد. وبينما هو يتوضأ سمعتُه يقول: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نُصرتَ نُصرتَ. فقلت: يا رسول الله! هل جاءك أحد كنتَ تتحدث معه؟ قال ﷺ: نعم، لقد لقِيني الآن في حالة الكشف وفدٌ من بني خُزاعة، ورأيتهم يسرعون إلي صارخين بأصوات عالية ويقولون: ننشدك الله، يا محمد، بما عاهدتنا عليه أنت وآباؤك. إننا ما زلنا ننصرك، ولكن قريشًا قد نقضت عهدها، فبيّتونا بين ساجد وراكع، وقتلوا منا عديدًا، وقد جئناك الآن مستنجدين. وعندما رأيت وفدهم قلت لهم: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نصرت نصرت. (السيرة الحلبية: المجلد الثالث، فتحُ مكة شرفها الله)

وهنا أيضًا تجد النبي ﷺ يرى كشفًا ويقول في حالة الكشف: لبيك لبيك لبيك، نُصرتَ نُصرتَ نُصرتَ ثلاث مرات، حتى سمعت ميمونة – رضي الله عنها – صوته ﷺ. وهذا يؤكد أن الآخرين أيضا يشتركون أحيانا مع صاحب الكشف. فهنا تجد أن ميمونة – رضي الله عنها – لم تر وفد الخزاعيين، ولكنها سمعت ما قال لهم النبي ﷺ في حالة الكشف، وبعد أيام وقع كما رآه النبي ﷺ في الكشف.

وهذه الأحداث والآيات لم تقع في حياة النبي ﷺ فحسب، بل ما زال الله ﷻ يُريها بعده ﷺ أيضا. فذات مرة كان عمر رضي الله عنه يلقي خطبة الجمعة، فقال أثناء الخطبة بصوت عال: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، يا سارية الجبل. فأخذت الناسَ حيرة وقالوا: ماذا قال عمر في أثناء خطبته؟ حتى قال بعض المنافقين إنه قد أصيب بالجنون حيث قال في أثناء الخطبة ما لا علاقة له بها. فذهب عبد الرحمن بن عوف إلى عمر – رضي الله عنهما – وقال له: إن الناس يتكلمون فيما بينهم عما وقع اليوم ويقولون كيف قال عمر في خطبته: يا سارية الجبل! فقال عمر رضي الله عنه: بينما أنا ألقي الخطبة، أخذتني حالة من الكشف، وتراءت لي

أرض العراق، فرأيتُ القائد المسلم ساريةَ وأصحابه يقاتلون العدو، ورأيت أن العدو على وشك أن ينتصر عليهم، وكنت أرى ساحة القتال فصحتُ: يا سارية، احترِزْ إلى الجبل لتنجو من هجوم العدو. وبعد بضعة أيام وصلت إلى عمر ﷺ رسالة من سارية يقول فيها: تشابكنا مع العدو في فجر يوم الجمعة، واستمرّ القتال إلى أن حانت صلاة الجمعة، فتناهى إلى آذاننا فجأة صوتك يقول: يا سارية الجبل! فتركنا ساحة القتال فورًا والتجأنا إلى الجبل، فكتب الله لنا الفتح وهزم العدو. (تاريخ الخميس مجلد ٢: كرامة عمر ﷺ صفحة ٢٤٣)

فترى هنا أن الجيش الإسلامي كان في العراق وكان عمر ﷺ في المدينة وكان بينهما مسافة مئات الأميال، ولكن لما استولت عليه حالة من الكشف، لم يسمع صوته مَن حضر خطبة الجمعة فحسب، بل سمعه سارية وجنوده المحاربون في أرض العراق على بُعد مئات الأميال، ثم عمِلوا بأوامر عمر ﷺ، فنجا جيش المسلمين من الهلاك المؤكد وانهزم العدو.

إن هذا المثال أيضًا يؤكد بكل وضوح أن نطاق الكشوف يتسع أحيانا بحيث يشترك فيه الآخرون رغم أن مسافة مئات الأميال تفصلهم.

كما ورد عن أولياء الله الذين خلوا في أمة المصطفى ﷺ أن بعضًا منهم كان يدعو الله تعالى بابتهال كل ليلة أثناء صلاة التهجد، وبينما هو يدعو الله تعالى ذات ليلة، جاء أحد مريديه وجلس بجانبه. فتلقى الولي بعد الدعاء إلهامًا سمعه المريد أيضا، ولكنه ظل صامتًا احترامًا لشيخه. وفي اليوم التالي استيقظ الولي لصلاة التهجد وبدأ الدعاء والابتهال، فتلقى نفس الإلهام الذي نـــزل عليه أمس وسمعه المريد أيضا، ولكن المريد لم يتكلم احتراما للولي. وفي اليوم الثالث قام الرجل الصالح لصلاة التهجد والدعاء، ولما فرغ من صلاته تلقى نفس الإلهام وسمعه المريد أيضا، فقال له: سيدي، أراك منذ ثلاث ليال متتالية تتلقى كل مرة إلهاما يقول: لن نستجيب لدعائك، ولكنك مستمر في الدعاء رغم ذلك؟ عليك أن تترك الدعاء بعد هذا الجواب، لأن الله تعالى ما دام لا يريد أن يستجيب لدعائك فما الفائدة من الإلحاح عليه؟ فقال الرجل الصالح: لقد تضايقتَ من سماع هذا الإلهام ثلاث مرات

فقط، وأنا لم أقنط من رحمة الله مع أنني أسمع هذا الصوت منذ ثلاثين عاما، لأن على العبد أن يستمر في الطلب والدعاء، فإن المؤمن لا ييأس من روح الله تعالى. وقد ورد في الكتب أن الله ﷻ أوحى إلى الوليّ في اليوم التالي وقال: لقد استجبنا لكل دعاء قمتَ به خلال ثلاثين سنة الماضية. فدعا الرجل مريده وقال له: انظُرْ، لو قبلتُ رأيك وتركتُ الدعاء لأصبحتُ محرومًا من كل هذه الأفضال الإلهية العظيمة، وذلك بعد أن اقتربت من باب النجاح.

فترى هنا أيضًا أن الله ﷻ قد وسّع نطاق الإلهام الذي أنـــزله إلى الوليّ حتى سمع المريد أيضا صوت الإلهام، ولثلاثة أيام متتالية.

ورأينا ذلك في هذا العصر أيضا. فإن الله ﷻ لما أرى المسيح الموعود عليه السلام كشف القطرات الحمراء فإنها لم تقع على قميصه فحسب، بل وقعت قطرة منها على طربوش أحد أصحابه ميان عبد الله السنوري، وهكذا أشركه الله هو أيضًا في هذه الآية. (چشمه معرفت (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ٢٣ ص ٤٣٢-٤٣٣)

وذات مرة أخبرني ملاكٌ في زمن المسيح الموعود أنه عليه السلام قد تلقى هذه الليلة الإلهام التالي: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً". وفي الصباح كتَب حضرته عليه السلام إلهاماته على ورقة ليبعثها لكي تُنشَر في الجريدة، وبالصدفة نسي أن يسجّل فيها هذا الإلهام، فقلت له عليه السلام: لقد أخبرني الملاك البارحة أنك تلقيت إلهاما يقول: "إني مع الأفواج آتيك بغتةً" ولكنه غير موجود بين هذه الإلهامات التي كتبتها على الورقة! فقال: أنت على حق، لقد تلقيت هذا الإلهام ولكني نسيت تسجيله هنا. ثم رجع عليه السلام إلى الداخل وأتى بالدفتر الذي كان يسجل فيه إلهاماته وقال: انظر، هذا الإلهام مسجّل هنا، ثم نشره في الجريدة مع الإلهامات الأخرى.

فترى هنا أن إلهامًا ينـــزل على المسيح الموعود عليه السلام من جهة، ومن جهة أخرى يخبرني الله تعالى أيضا أن هذه الكلمات قد نـــزلت على المسيح الموعود عليه السلام في وحيه، وفي الصباح نعلم أن هذا الخبر صحيح.

باختصار، إن رفقاء المرء أيضا يشتركون أحيانا في ما يراه من رؤى وكشوف. وهذا أمر قطعي يقيني، حتى كتب المسيح الموعود عليه السلام وهو يدعو الملكة فيكتوريا إلى الإسلام، ما تعريبه:

"لو مكَث طالبُ حقّ في صحبتي بصحة النيّة فترة من الزمن وأراد أن يرى المسيحَ (الناصري) عليه السلام رؤيةَ كشف، فسيراه ويكلّمه أيضًا ببركة عنايتي ودعائي، ويمكنه أن يطلب منه الشهادة عن أحواله. فإني أنا ذلك الشخص الذي قد سكنتْ روحُ يسوع المسيح في روحي على سبيل التمثّل والبروز●. (تحفة قيصرية (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ١٢ ص ٢٧٣)

والحقّ أن ظهور عصا موسى عليه السلام على شكل ثعبان كبير كان من قبيل هذه الكشوف، وقد اتسع نطاق هذا الكشف حتى رآه فرعون وأصحابه فخافوا وارتجفت قلوبهم. وهذا الحادث يماثل تماما ما وقع لأبي جهل مرة كما ورد في الحديث؛ وذلك أنه كان لأحد الفقراء دَينٌ على أبي جهل، ولكنه كان يماطله. فجاء النبيَّ ﷺ وقال له: إن أبا جهل مدينٌ لي، ولكنه لا يدفع مالي رغم أنني طالبته به مرارا، فساعدْني في استرداد مالي منه. وكان النبي ﷺ قد اشترك قبل بعثته في حلفٍ قد أقسمَ جميع الأطراف فيه على نصرة المظلوم واسترداد الحق لصاحبه، فقام النبي ﷺ معه مسرعَ الخطى إلى بيت أبي جهل، وذلك برغم أنه ﷺ كان في تلك الأيام يواجه معارضة شديدة من قبل أهل مكة، وكان في خروجه في شوارعها وحيدًا خطر على حياته. ولكنه خرج مع الرجل غير مكترث بالعواقب، وطرق على أبي جهل بابه. فلما خرج قال له النبي ﷺ: هل أنت مَدينٌ لهذا؟ قال: نعم.

● يجب أن لا يُسيء أحد فهم هذه العبارة فيظن أن حضرته عليه السلام كان يؤمن بعقيدة الحلول والتناسخ كما يعتقد البعض وخاصة الهندوس. كلا، بل إنه عليه السلام قد دحض هذه العقيدة صراحة في أماكن عديدة. ولأجل ذلك قد زاد هنا أيضًا كلمتي "التمثّل والبروز"، كما قال في كتابه "التبليغ" بعد تسجيل رؤيا له ما نصّه: "ولا نعني بهذه الواقعة كما يُعنَى في كتب أصحاب وحدة الوجود، وما نعني بذلك ما هو مذهب الحلوليين." (التبليغ ص ١٢٨) (المترجم)

قال ﷺ: فادفَعْ إليه ماله. فدخل أبوجهل بيته صامتًا وردّ المال لصاحبه. ولّما سمع أهل مكة بالخبر، أخذوا يلومون أبا جهل ويقولون: تنهانا عن طاعة محمد، وتخافه لدرجة أنك تدخل أمامه البيت صامتا وتأتي بالمال وتسلّمه لصاحبه. فأجابهم أبو جهل: إنكم لا تدرون ما حدث معي. فإني لما فتحتُ الباب ورأيت محمدا وجدت على يمينه وشماله جملَين هائجين، فأيقنت أنهما سيفترسانني إذا رفضتُ طلبه، فلم أر بُدًّا من سداد الدين. (السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الثاني، أمرُ الإراشي الذي باع أبا جهل إبله)

وهذا المشهد الذي رآه أبو جهل كان أيضا من قبيل الكشوف، إذ لم يكن على يمين النبي ﷺ ولا شماله أي جمل هائج في الظاهر.

وكان هناك هندوسي من مدينة لاهور وكان يعمل محاسبا، فجاء مرة إلى قاديان في مناسبة عرس، وكان خبيرًا في علم التنويم المغناطيسي، وكان بنِيته أن يمارسه على المسيح الموعود عليه السلام في مجلسه فيرقص ويُفتضح بين الناس. وقد ذكر هذا الهندوسي بنفسه هذا الحادث لأحد الأحمديين اسمه "ميان عبد العزيز مُغل" وذلك حين أعطاه المسيح الموعود عليه السلام كتابا من كتبه ليوصله إلى ذلك الهندوسي. فذهب ميان عبد العزيز إليه بالكتاب، وقال له: لماذا بعث إليك حضرة الميرزا هذا الكتاب، وما هي نوعية العلاقة بينك وبينه؟ فحكى له قصته مع المسيح الموعود عليه السلام وقال: إني أملك مهارة عالية في التنويم المغناطيسي بحيث لو ركّزتُ على شخص راكب في عربة حصان لنـــزل منها وأخذ يجري وراءها، وإن لم يكن بيني وبينه أي معرفة سابقة. ثم قال: كنتُ سمعت من الآريين الهندوس الكثير ضد حضرة الميرزا، فقررت أن أمارس عليه التنويم المغناطيسي لأفضحه أمام مريديه. فجئت قاديان في حفلة عرس وقصدت مجلسه، فوجدته يلقي خطاباً أمام الناس. فجلستُ عند باب المسجد، وبدأت أركّز عليه، فلم يتأثّر مطلقاً. فقلت في نفسي: إنه قوي الإرادة جداً، فعليّ أن أركّز عليه بشدة أكثر. ففعلت ولكن بدون جدوى، حيث ظلّ يحدّث الناس على ما يرام. فأدركت أن قوته الإرادية أشدّ مما ظننت. فبدأت أبذل كل ما في وسعي للتركيز عليه. وحين ركزتُ عليه هذه المرة رأيت على

مقربة منّي أسداً، فارتعدت فرائصي برؤيته. فلُمتُ نفسي بأني قد أصبحت فريسة للأوهام، إذ من المستحيل وجود أسد هنا. فعاودت التركيز عليه، فإذا الأسد قد اقترب مني، فأخذتْ جسمي رجفةٌ برؤيته، ولكني استجمعتُ قواي وحواسّي، واستأنفت التركيز عليه مستنـــزفًا طاقتي كلها، فوجدت الأسد قد انقضّ عليّ. فصرختُ بصوت عال من شدة الخوف، وأخذتُ حذائي وهربت. فلما سمع حضرة الميرزا المحترم صراخي قال لمريديه: انظروا، من هذا الذي هرب، وماذا حصل به؟ فطاردني شخصٌ وأمسكني في الميدان القريب من المسجد، وكان الهلع قد بلغ مني كل مبلغ، فتوسلت إليه أن يتركني لأني خائف جداً، فخلّى سبيلي. ثم بعد ذلك كتبتُ لحضرته الحادثَ كله، وقلت له: لقد أسأتُ إليك إساءة بالغة، حيث لم أعرف مكانتك الروحانية. لا شك أنك من كبار الصالحين الواصلين بالله تعالى، فاعف عني.

وكان ميان عبد العزيز مُغل يحكي لنا أنه سأل هذا الهندوسي: لماذا لم تستنتج من هذا الحادث أن حضرة الميرزا هو الآخر ماهرٌ في التنويم المغناطيسي، بل هو أعلم منك؟ فأجاب: كلا، لأن التنويم المغناطيسي يتطلب تركيزاً، ولا يمكن أن يمارسه المرء إلا إذا كان هادئا صامتًا، أما حضرة الميرزا فكان يتحدث مع أصحابه في ذلك الوقت، فعلمتُ أن قوته الإرادية قوة سماوية وليست أرضية، وأنه من عباد الله الواصلين. (سيرت المهدي (أردو) ص ٤٨-٤٩)

وقد ظلّ هذا الهندوسيّ طوال حياته يكنّ احترامًا وحبًّا كبيرين تجاه المسيح الموعود عليه السلام ويراسله دائمًا.

كذلك تنبأ المسيح الموعود عليه السلام عام ١٨٩٣م عن القسيس عبد الله آتم أنه سيُلقَى في الهاوية وتُضرب عليه الذلّة خلال خمسة عشر شهرًا إلا أن يرجع إلى الحق. فاستولى على قلب "آتم" الرعبُ من هذه النبوءة، وأخذ يرى مناظر مروعة جدًا. فذات مرة رأى في مدينة "أمرتسار" ثعبانًا مخيفًا، فأصابه الذعر الشديد حتى ترك أهله وأولاده وفرّ إلى مدينة "لدهيانا" ليقيم عند صهرٍ له. ولكنه لم يذق طعم الراحة هناك أيضًا، حيث رأى أناسًا مسلحين بالرماح يريدون قتله، ودخلوا داره. فأصيب

بالهلع وهرب إلى مدينة "فيروزبور" ليقيم عند صهرٍ آخر له. ولكنه رأى هنالك أيضًا أناسًا مسلحين بالبنادق والسيوف ويريدون الهجوم عليه. وباختصار قضى "آتم" تلك الأشهر الخمسة عشر في فزع وكرب، وظلّ يهرب من مكان إلى مكان. (أنجام آتم (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ١١ ص ٨-٩)

إن هذه المشاهد التي رآها "آتم" إنما كانت من قبيل الكشوف في الواقع، إذ لو كان هناك أي ثعبان ماديّ لقتَله "آتم" بدون صعوبةٍ بالغة، ولو كان ثمة بشرٌ يريدون الهجوم عليه بالفعل لما كان إلقاء القبض عليهم صعبًا. ولكن هذه الأشياء لم يرها إلا آتم، وهو الذي قد تحدث عنها بنفسه.

فكما أن أبا جهل رأى جملين هائجين، وكما أن الهندوسي من لاهور رأى أسدًا يريد افتراسه، وكما أن عبد الله "آتم" رأى الثعابين والناس المسلحين بالبنادق والسيوف والرماح يريدون قتله، كذلك رأى فرعون عصا موسى على شكل ثعبان واضح، فارتعد منه خوفًا.

لا شك أن فرعون ظنّ عصا موسى عليه السلام ثعبانا ماديًّا، ولكن تأويله في الواقع أن جماعة موسى عليه السلام ستلتهم فرعون وجنوده كما تلتهم الأفعى الناس، وأن بني إسرائيل الذين لم يكن فرعون يريد أن يرسلهم مع موسى سيتسببون في هلاكه ودماره، فيصبح موسى من الغالبين. فقد ورد في كتب التعبير: "مَن رأى أنه مَلكَ ثعبانًا فإنه يصيب سلطانًا عظيمًا". (تعطير الأنام في تعبير المنام: كلمة ثعبان)

إذًا، فكان هذا الكشف يتضمن نبأً عن غلبة موسى عليه السلام وجماعته ودمار فرعون وقومه. كما كان يمثّل تحذيرًا لفرعون بأنه لا بد من بقاء بني إسرائيل تحت إشراف موسى، وإلا فسوف يتأثرون بعادات فرعون وأخلاقه الذميمة، وبالتالي لن يعودوا أناسا بل سيصبحون ثعابين. سيصبحون – مثل الثعبان الذي يأكل تراب الأرض – ديدانَ الأرض بدلاً من أن يكونوا جماعة نشيطة قوية. ولكن فرعون لم يدرك مغزى هذا المشهد من الكشف، وظن أن موسى عليه السلام ساحر كبير وحوّل العصا ثعبانًا بقوة سحره.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد استعمل لبيان تحوّل عصا موسى إلى ثعبان ثلاث كلمات، أُولاها كلمة ﴿ثعبان﴾ التي وردت في الآية التي هي قيد التفسير، وأيضًا في الآية رقم ١٠٨ من سورة الأعراف. وثانيتها كلمة ﴿حيّة﴾ التي وردت في سورة "طه" الآية رقم ٢١، وثالثتها كلمة ﴿جانّ﴾ وذلك في سورة النمل الآية رقم ١١، وسورة القصص الآية رقم ٣٢.

ويعترض أعداء الإسلام جهلاً منهم ويقولون: لماذا استعمل القرآن الكريم كلمات مختلفة لبيان أمر واحد، فهذا دليل على وجود اختلاف فيه؟

والحقّ أن اعتراضهم إنما منشأه قلّة التدبّر، فلو أعملوا الفكر لما وجدوا أي اختلاف. الواقع أن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه في بلاط فرعون ظهر للناس ثعبانًا، وكلما ذكر القرآن الكريم ما وقع في البلاط، استعمل لفظ الثعبان فقط؛ إذًا فليس ثمة اختلاف فيه فيما يتعلق بحادث البلاط. أما كلمتا ﴿حيّة﴾ و﴿جانّ﴾ فقد استعملهما القرآن الكريم حين تحدّث عن تشريف الله موسى بكلامه وأمره بالذهاب إلى فرعون، فعندما أمره الله سبحانه وتعالى في تلك المناسبة أن يلقي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(طه:٢١) ولفظ الحيّة يطلق على الأفاعي الصغيرة منها والكبيرة. أما في سورة النمل والقصص فقد قال الله سبحانه وتعالى عند الحديث عن نفس الموضوع والمناسبة: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(النمل:١١).. أي لما رأى موسى عصاه تهتزّ كأنها أفعى صغيرة، ولّى مدبرا و لم ينظر إلى الوراء. وقد وردت نفس الكلمات أيضًا في سورة القصص (الآية:٣٢) عند الحديث عن الحادث نفسه.

إذًا، فلو كان ثمة مجال للاعتراض فإنما هو أن يقال: لماذا استخدم القرآن لفظ ﴿حيّة﴾ في مكان ولفظ ﴿جانّ﴾ في مكان آخر مشيرًا إلى مناسبة واحدة؟ أما استعمال القرآن الكريم لفظ ﴿ثعبان﴾ فلا يجوز الاعتراض عليه مطلقًا كما بينتُ آنفًا إذ قد استعمله بصدد مناسبة أخرى.

فليكن معلومًا – بصدد الاعتراض الذي يثار على ورود كلمتين مختلفتين عن مناسبة واحدة – أن القرآن الكريم لم يقل في سورة النمل ولا في سورة القصص في

وصف العصا "أنها جانّ"، بل قال في وصفها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾.. أي أنها كانت حيّةً كبيرةً وكانت تتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّة الصغيرة. إذًا، فلا تعارُض بين اللفظين اللذين استخدمهما القرآن الكريم، لأنه حين استعمل لفظ ﴿جَانٌّ﴾ فإنما أراد به الإشارة إلى سرعة حركتها لا إلى ضخامتها.. أي حين ألقى موسى عصاه أخذت تسعى بسرعة كما تتحرك الحيّة الصغيرة بسرعة. وإذا فحصنا الآيات التي استعمل فيها القرآن الكريم لفظ ﴿ثعبان﴾، لتبيّن لنا أنها تتحدّث عن الحادث الذي وقع أمام فرعون في بلاطه، وحيث إن الله ﷻ أراد تخويف فرعون، فقد تراءت له العصا على صورة ثعبانٍ عظيم. فالحقّ أنه لا تعارُض بين آيات القرآن الكريم، وإنما نشأت هذه الاعتراضات في قلوب هؤلاء القوم نتيجة قلّة التدبّر وجهلهم باللغة العربية.

والمعجزة الثانية التي ظهرت بهذه المناسبة هي أن موسى عليه السلام لما أخرج يده من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾. وهذا أيضًا كشفٌ من الكشوف أراه الله فرعونَ وأصحابه أيضًا، وكان يتضمّن الإشارة بأنكم، يا أتباعَ فرعون الماهرين في علم المِسْمَريّة (التنويم المغناطيسي)، تعرفون جيدًا أن اللون الأبيض يرمز إلى الصلاح والورع وطهارة القلب، فظهور يد موسى بيضاءَ دليلٌ على أنه طاهر القلب منـــزه عن العيب، ولا يشوب ما يقوله لكم كذب ولا افتراء. لو ظهرت يده سوداء لكانت دليلا على سواد قلبه وظلام باطنه، ولكنكم ترون يده بيضاء تلمع وتبهر العيون كالشمس، فبإمكانكم أن تعرفوا، بناءً على مهارتكم في هذا العلم، أنه شخص صالح طاهر، وبالتالي عليكم بتصديق قوله.

كما أن يد موسى البيضاء كانت إشارة إلى وقوع انقلابات عظيمة على يده، وأنها لن تقع نتيجة ظلم وعدوان أو مكر وغش وكذب وافتراء من قبل موسى، بل بسبب تأييد الله تعالى ومعجزاته التي ستتحقق ببركة دعاء موسى ربه ﷻ، وأن الجماعة الروحانية التي يتمّ تأسيسها على يد موسى عليه السلام ستضيء العالم بأنوارها لا محالة. وكما أن الشمس والقمر يبدّدان الظلمات، كذلك فإن الآيات التي ستظهر

على يد موسى ستبدد الظلمات التي تحيط بقلوب الناس وسيقوم حكم الرحمن مكان حكم الشيطان.

هذا، وكان هذا الكشف إشارة إلى طهارة قوم موسى عليه السلام أيضا، ذلك أن اليد تأويلها القوم أيضًا إلى جانب الأخ والابن والأقارب الآخرين (تعطير الأنام: كلمة يد)، لأن أفراد القوم يقوّي بعضهم بعضًا ويساعد بعضهم بعضًا في المحن والشدائد. فكان ظهور يد موسى في الكشف بيضاء لا عيب فيها يعني أنه مما لا شك فيه أن بني إسرائيل موصومون بعيوب كثيرة الآن، ولكنهم حين يجتمعون على يد موسى فسوف يزودهم الله تعالى بأنواره حتى يكونوا هداة للضَّالين ويحوزوا في الأخلاق والروحانية درجات عُلا.

ويتساءل البعض ويقول: كيف يمكن خروج الأشعة من جسم الإنسان على هذا النحو حتى يراها الآخرون أيضًا؟ فاعلم أن هذا التساؤل إنما سببه أن الناس يظنون هذه المعجزة معجزة ماديّة، ولو أنهم اعتبروها كشفًا من الكشوف، لما نشأت هذه الوساوس في قلوبهم. فإننا قد شاهدنا في هذا الزمن أيضا – ناهيك عن زمن موسى عليه السلام – آياتٍ مماثلة حيث رأى فيها أصحاب البصيرة الكشفية أنوار الله تعالى متمثلة في الظاهر وتمتعوا بتأثيرها الروحاني. فقد ذهب المسيح الموعود عليه السلام إلى لاهور عام ١٩٠٤م وألقى هناك خطابًا في اجتماع. وكان من بين الحضور محامٍ من غير جماعتنا اسمه "شيخ رحمت الله". ويقول هذا المحامي إنه رأى عمودا من نورٍ يخرج من رأس المسيح الموعود عليه السلام أثناء خطابه ويصعد إلى السماء. وكان معه صديق آخر فقال له: انظر إلى ذلك! فقال صاحبه من فوره: إنه عمود من نور يخرج من رأس حضرة الميرزا ويصل إلى السماء. وقد ترك هذا المنظر في قلب "شيخ رحمت الله" وقعًا كبيرًا، فبايع على يد المسيح الموعود عليه السلام في نفس اليوم. (جريدة "الفضل" ١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٤٤م ص ٢)

وذات مرة صام المسيح الموعود عليه السلام بأمر الله تعالى ستة أشهر متتالية. يقول حضرته عن التأثير الروحاني لذلك الصيام ما تعريبه:

"ومن التأثيرات العجيبة التي جرّبتها نتيجة ذلك الصيام مكاشفاتٌ لطيفة انكشفت عليّ في تلك الأيام، حيث لقيتُ بعض الأنبياء السابقين، وقابلت كبار أولياء هذه الأمة الذين خلوا من قبل. كما رأيت أنوارًا روحانية متمثلة على شكل أعمدة حمراء وبيضاء، تبلغ من الجمال والروعة ما لا أستطيع وصفه مطلقا. وكانت لتلك الأعمدة النورانية – التي كانت تصعد إلى السماء رأسًا وكانت بعضها بيضاء ناصعة لامعة وبعضها خضراء وبعضها حمراء – علاقةٌ عجيبة بالقلب حيث كانت رؤيتها تغمر القلب سرورًا وحبورًا، وليست في الدنيا لذة تماثل اللذةَ التي كان يتمتع بها قلبي وروحي برؤية تلك الأعمدة. وظنّي أنها تمثّلت في الظاهر نتيجة امتزاج حبّ الله وحبّ العبد.. أعني أن نورًا صعد من قلب العبد ونورًا آخر نـــزل من السماء، وعندما اتصلا تحوَّلا عمودًا. وهذه أمور روحانية لا يمكن أن تعرفها الدنيا لأنها بعيدة عن أعينها، ولكن هناك أناس في الدنيا يُطْلَعون على هذه الأمور". (كتاب البرية، الخزائن الروحانية المجلد ١٣ ص ١٩٨-١٩٩ الهامش)

كذلك قال عليه السلام في مناسبة أخرى ما تعريبه: " لقد رأيت أن فيوض الله تعالى تذهب إلى النبي ﷺ في شكل نوراني عجيب، وعندما تصل إليه ﷺ تسري في صدره، ثم تخرج منه في شكل أنابيب لا تُعَدّ ولا تحصى، وتصل إلى كل مستحقّ بقدر نصيبه." (جريدة الحكم ٢٨ فبراير/شباط ١٩٠٣م صفحة ٧)

وذات مرّة تشرّف المسيح الموعود عليه السلام بلقاء النبي ﷺ في رؤيا حيث رأى أن جبينه ﷺ المبارك يسطع كما تسطع أشعّة الشمس. (براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٢٧٤-٢٧٦ الهامش)

وقبل أن يُقرأ مقاله عليه السلام في المؤتمر الأعظم للأديان في لاهور، رأى المسيح الموعود عليه السلام رؤيا، فقال: رأيت "أن يدًا من الغيب حطَّتْ على قصري، فخرج منه نورٌ ساطع انتشر فيما حوله، ووقع على يديَّ أيضا". (مجموعة اشتهارات (أردو) المجلد ٢ ص ٢٩٣-٢٩٥ رقم الاشتهار ١٤٩)

باختصار، إن الذين يُبعَثون لإصلاح الخلق يجعلهم الله تعالى مهبطًا لأنواره وتجلياته، وتتجلى هذه الأنوار في بعض الأحيان تجليًا ظاهرًا أيضًا، حتى يراها

الآخرون، لكي ينتفع منها أصحاب الفطرة السعيدة ويُحدثوا تغيّرًا طيّبًا في قلوبهم. وقد تمثّل لي أيضًا نور الله ﷻ في الظاهر، ففي عام ١٩١٠ أو ١٩١١م، أصابتني الحمّى وبدأت أشعر في منبت الفخذ ألمًا شديدا. وكان بعض الناس قد ماتوا في تلك الأيام بسبب الطاعون، فخفتُ أن أكون مصابًا به. فأغلقتُ عليّ باب الغرفة وأخذت أفكر في مصيري. وبينما أنا في ذلك وعيوني مفتوحة وأرى غرفتي وجدرانها وكل ما فيها، طرأت عليّ حالة الكشف، فرأيت نورًا ناصعًا لامعًا للغاية يسطع من أرضية الغرفة ويشقّ سقفها صاعدًا إلى السماء، وليس له بداية ولا نهاية. ثم رأيت يدًا تخرج من هذا النور حاملة قدحًا مليئًا باللبن وتناولني إيّاه، فشربت اللبن. ولما فرغت من شربه، رأيت أنه ليس بي ألم ولا حمى ولا أثر للمرض، بل أصبحت على ما يرام.

وأحيانًا يرى المرء أشعّة تخرج من الآخرين وتكشف عليه أفكارهم الباطنة، فيعرف ما إذا كانوا من المؤمنين الصادقين أم لا. ولقد جربت مرارًا أن المرء يحدّثني فأشعر أن روحي تصطدم بروحه فتعلم أنها روحُ منافق. كذلك يُبدي لي البعض إخلاصًا عظيما ويهمّ بتقبيل يدي، ولكنه حينما يقبلها أشعر بأنه قد لطّخ يدي بنجاسته وأنه لا يكلّمني بل يسبّني. ذلك لأن الله ﷻ يكشف على المرء سرائر الآخرين بحيث أن المتحدث يتكلم حينًا بما يدلّ على ما يكنّ في باطنه، أو تسطع حينًا من قلبه أشعة دقيقة وتقع على قلب الآخر، فينكشف عليه ما يظنّه صاحبه أنه لا يزال مستورًا في قلبه. ذلك لأن من عباد الله ﷻ من ينفذ بصره – رغم أنه بصرُ إنسان – إلى قلوب الآخرين، فيكشف عليه ما يكون خفيًا على الآخرين، ولكن بما أن هذا العبد يلبس رداء ربه الستّار ﷻ، فيستر عيوبهم مثله ﷻ. إنه لا يخبر الناس عيوبهم لأن أفكارهم لا تنكشف عليهم، وإنما يفعل ذلك لأن الله تعالى لا يريد أن يهتك سترهم. أتذكّر جيدًا أن امرأة بهائية جاءت إلى قاديان وظلّت تناقشني أيامًا في مسائل مختلفة بدون أن يؤثر فيها كلامي. وشعرتُ ذات يوم أثناء الحوار أن شيئا يخرج من جسمي ويصطدم بها ولا ينفذ فيها، فدعوت الله ﷻ، فرأيت أن هذا الشيء الذي كان يصطدم بها بدأ ينفذ فيها، وكانت النتيجة أن هذه السيدة التي

كانت تناقشني بكل حماس أصيبت بالذعر فجأة وتوقفت عن الجدال وقالت لي: عليّ أن أذهب الآن لأن ابني مريض، مع أنه لم يكن به مرض.

مجمل القول إنه تنبع من أجساد أنبياء الله وأوليائه أشعة شتى ذات ألوان مختلفة بحسب درجتهم الروحانية، ولكنها لا تُرى بالعين المادية، إنما تُرى بالعيون الكشفية التي تتيسر بفضل الله ﷻ.

هذا هو النور الذي سطع من يد موسى عليه السلام، فرآه فرعون وحاشيته أيضا بقدرة الله تعالى، ولكنهم كانوا جاهلين بالعلوم الروحانية فلم يعرفوا عظمة موسى عليه السلام ومكانته الرفيعة رغم رؤية هذه الآية العظيمة، بل ظنّوا أنه إنما فعل ذلك بقوة سحره.

إذًا، فقد تجلى الله ﷻ بجلاله وجماله على يد موسى عليه السلام، وأعطاه آيتين: آية تحذيرية على شكل ثعبان، وآية تبشيرية على شكل يد بيضاء. وقد اعترفت التوراة بظهور آية تحوُّل العصا إلى ثعبان، ولكنها لا تعزوها إلى موسى بل إلى هارون عليهما السلام. أما آية اليد البيضاء فلم تذكر التوراة مطلقًا أن موسى قد أراها في بلاط فرعون. وهذا خطأ كبير من التوراة، وقد تداركه القرآن الكريم. والحق أن هناك شهادة داخلية في التوراة نفسها تدلّ على أن موسى قد أرى آية اليد البيضاء في البلاط، وذلك أنها تقرّ بأن الله تعالى لما أمر موسى بالذهاب إلى فرعون:

"فقال له الرب: ما هذه في يدك؟ فقال: عصا. فقال: اطرَحْها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض، فصارت حيّة. فهرب موسى منها." (الخروج ٤: ٢-٣)

كذلك ورد فيها:

"ثم قال له الرب أيضا: أَدْخِلْ يدك في عُبّك. فأدخل يده في عبّه، ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج."(الخروج ٤: ٦)

لقد اعتبرت التوراة هنا بياض يد موسى عليه السلام نتيجة لمرض الجذام، وهذا أمر مخجل جدًا. لقد كان موسى عليه السلام نبيًّا من أنبياء الله تعالى، وكان المكان الذي كلّمه الله فيه مركزًا للتجليات الإلهية، وكان تكليم الله موسى في هذا المكان المقدس إنعامًا عظيمًا وكان الوقت وقت بركةٍ وفيوض ربانية، فكيف يمكن أن

ينـــزل – في ذلك المقام المبارك والوقت المبارك – عذاب من عند الله تعالى على موسى، فتصاب يده بالجذام؟ فالواقع أن يده لم يصبها الجذام قط، وإنما أصاب الجذامُ الروحاني قلبَ يهودي شقيّ نسب هذا العيب إلى موسى عليه السلام. ولذلك قد أضاف القرآن الكريم عند ذكر هذا الحادث كلمات ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾(طه:٢٣).. أي أن بياض يده لم يكن بسبب مرض، وإنما ابيضّت كآية من عند الله تعالى.

ونعود إلى الموضوع الأصلي ونقول إن التوراة بعد ذكر المعجزتين تقول:

"فيكون إذا لم يصدّقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدّقون صوت الآية الأخيرة." (الخروج ٤: ٨)

فلو أن فرعون آمن برؤية آية تحوُّل العصا إلى ثعبان لسلّمنا أنه لم تكن هناك حاجة لإظهار المعجزة الثانية، ولكنه ما دام لم يؤمن بالمعجزة الأولى فكان لزامًا – بحسب بيان التوراة نفسها – أن يريه موسى عليه السلام معجزة اليد البيضاء أيضًا. ولو أنه لم يؤمن أيضًا فكان عليه أن يُريه المعجزات الأخرى التي قد جاء ذكرها في التوراة والقرآن الكريم أيضًا. فقول التوراة إن فرعون إذا لم يؤمن برؤية المعجزة الأولى فعلى موسى أن يُريه المعجزة الثانية، يدلّ على أن موسى قد أراه المعجزتين كلتيهما. ولكن التوراة لما كانت قد تعرّضت للتحريف على أيدي الناس، فذكرت أن موسى قد أرى فرعون المعجزة الأولى دون أن تذكر المعجزة الثانية. بيد أن الشهادة الداخلية للتوراة تؤكد أن الله ﷻ قد أمره بإراءة المعجزتين في بلاط فرعون. فالواقع أن ما ذكره القرآن الكريم هو الحق، وأن ما قالته التوراة هو باطل بشهادتها هي.

أما قول التوراة أن هارون هو الذي ألقى العصا في بلاط فرعون لا موسى (الخروج ٧: ١٠)، فهو قول خاطئ، لأن التوراة نفسها تعترف بأن الله تعالى قال لموسى لا لهارون:

"ما هذه في يدك؟ فقال: عصًا. فقال: اطرَحْها إلى الأرض. فطرحها إلى الأرض، فصارت حيّة. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى: مُدَّ يدك وأَمْسِكْ بذنَبها. فمدّ يده وأمسكَ به. فصارت عصًا في يده." (الخروج ٤: ٢-٤).

كما أن الله ﷻ قال لموسى لا لهارون إنهم إذا لم يؤمنوا برؤية المعجزة الأولى فسوف يؤمنون برؤية المعجزة الثانية. (الخروج ٤: ٨)

فما دام الحوار كلّه قد جرى مع موسى، وما دامت عصاه هي التي تحولت ثعبانًا، وما دام موسى هو الذي قال الله ﷻ له إن فرعون وملأه إذا لم يؤمنوا برؤية المعجزة الأولى فسيؤمنون برؤية المعجزة الثانية، فكيف يمكن أن يلقي هارون عصاه في بلاط فرعون بدلاً من موسى؟ فهذا أيضًا باطلٌ بالشهادة الداخلية للتوراة، وثبت أن ما قاله القرآن هو الصحيح.

باختصار، إن هاتين آيتان عظيمتان أظهرهما الله ﷻ على يد موسى عليه السلام. وبرغم أننا نعترف أن إلقاءَ موسى عصاه وتحوُّلَها إلى حية في أعين الناس، وضَرْبَ موسى البحر الأحمر فانفلاقه، وضَرْبَ موسى الصخرة فانفجار الماء منها، لآيات عظيمة، إلا أنه لا يسعنا سوى الإقرار بأنها لا تساوي شيئًا أمام معجزة العصا التي أُعطيها محمد ﷺ. لا شك أن عصا موسى عليه السلام كانت وثيقة الصلة بآيات عظيمة، ولكن لا يوجد لعصاه اليوم أثر في الدنيا! لقد بقيت عصاه في يده هو فقط، وانتهت آياتها بوفاته، ولكن العصا التي أعطاها الله محمدًا ﷺ لا يؤثر فيها موت إنسان أو مرور زمان، ولا تقدر أقوى دولة في العالم على كسرها. إنها عصا لا تأكلها سوس الأرض، ولا تفنيها صاعقة السماء. إنها عصًا لا تزال تشجّ رأس الكفر حتى اليوم وستظل تلقف فخاخ الشيطان وحباله إلى يوم القيامة. إنها القرآن الكريم الذي أُعطيه محمد ﷺ، وقيل للمسلمين ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(الفرقان:٥٣).. أي أيها المسلمون، خذوا القرآن الكريم، وجاهدوا الكفار به جهادا كبيرا. وهذا يعني أن القرآن الكريم ليس كتابا فقط، بل هو سلاح ماضٍ أيضًا نستطيع به التصدّي للظلمات التي قد نشرتها قوى الكفر والشيطان.

لقد نبّهنا الله تعالى بقوله ﴿بِهِ﴾ أن القرآن الكريم كما هو هدفٌ وغاية للإنسانية، فإنه الوسيلة لتحقيق ذلك الهدف أيضًا، بمعنى أنه ليس بحاجة إلى مساعدة محامٍ يقدّم الأدلّة والبراهين الروحانية على صدقه، بل إنه بنفسه يسوق الأدلة على صدق دعاويه، وبالتالي يرفع المستوى العقلي والفكري لدى الناس.

باختصار، يبلغ القرآن الكريم من السموّ والقوة بحيث يمكن به فتح العالم بدون اللجوء إلى السيوف والمدافع. لا شك أنه يوجد اليوم بين المسلمين الآخرين أيضًا صحوة وحماس للتضحية، ولكن هذا الحماس يدفع بهم إلى حمل السيوف والبنادق. إن مسلم اليوم أكثر صحوة ويقظة من المسلم الذي كان قبل قرن ونصف، ولكنه يسارع إلى تناول السيوف والبنادق والمدافع. إنه ينظر بحسرة إلى الذين يصنعون القنابل الذرية آملاً أنهم سيتصدقون عليه ببعض ما عندهم من السلاح، ولكن الله تعالى أخبرنا بواسطة المسيح الموعود عليه السلام أن مدفعكم القرآن، وأن بندقيتكم القرآن، وأن مسدسكم القرآن. إن السلاح الذي تدمغون به رأس العالم هو القرآن. لستم بحاجة إلى بنادق الإنجليز من أجل الفتح، ولستم بحاجة إلى أمريكا لتجود عليكم بقنبلة أو قنبلتين ذريتين، أو إلى فرنسا أو ألمانيا لتزودكم بالمواد الكيماوية، وإنما واجبكم أن تأخذوا القرآن بأيديكم لتفتحوا به العالم.

إن القرآن كتابٌ يولّد في قلب الإنسان خشية الله ويُرغِّبه إليه تعالى، ويلبّي له كل ضرورة طبعية وروحانية. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾(الإسراء:٩٠).. أي أننا قد بيّنا في القرآن الكريم وبأساليب متنوعة كل ما تحتاج إليه طبائع البشر بكل أنواعها. الحق أن هناك أمرين اثنين يؤكدان فضل أي تعليم، أحدهما أن يشمل كل المواضيع والقضايا، وثانيهما أن يكون صالحًا لشرائح الناس كلها. والقرآن الكريم متّسم بكلتا الميزتين، أي ليس هناك إنسان لا يخاطبه القرآن، وليس هناك أمر لا يبينه القرآن. وما دام القرآن الكريم قد بيّن كل شيء، وما دام قد أنـــزل فيه جميع التعاليم المتنوعة، نظرًا إلى كل الطبائع البشرية، فكيف يمكن بعد ذلك أن لا يحظَى العاملون به بحب الله ولطفه؟ لا شكَّ أن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء السابقين – عليهم السلام – قد حظوا بوصال الله تعالى بحسب إيماننا، ولكن قلوبنا لا تطمئن بهذا فقط، بل نود أن نحظى أيضا بحب الله تعالى، وليس الكتاب الحيّ إلا الذي يوصلنا بالله الحيّ، أما الكتاب الذي لا يوصلنا بربنا فوجوده وعدمه سِيَّان بالنسبة لنا. والله تعالى يعلن في

القرآن الكريم أنه قد أنـــزل في القرآن الكريم ما يسدُّ كل ضرورة روحانية لكل إنسان، فكل من عمل به بصدق حظي بوصال الله تعالى وقربه.

وكذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في القرآن الكريم أن يعلن للناس ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾(الأنعام:٢٠).. أي لقد أُوحي إلي هذا القرآن لأنفعكم به وأنفع كلَّ من يصله صوتي أيضًا. فالقرآن الكريم يعلن من ناحية أنه قد تناول جميع المواضيع والقضايا بالبيان، وأنه قد خاطب كل شريحة من شرائح الناس، كما يعلن من جهة أخرى أنه سينفع كل من يبلغه، لأنه قد نـــزل لنفع كل من يصل إليه صوته.

إذًا، فالقرآن الكريم سلاح عظيم وُهب لمحمد رسول الله ﷺ. لقد ظهرت عصا موسى عليه السلام لفرعون وملئه على صورة ثعبان لوقت قصير فارتعشت أبدانهم لبعض الوقت، ولكن القرآن الكريم كتاب لا ينفك يقوم بالإنذار، ثم إن إنذاره ليس خاصًا بقوم دون قوم أو ببلد دون بلد، بل إنه موجه إلى كل الشعوب وجميع البلدان. ثم إنه أسمى من قيود الزمن أيضًا، فلن يأتي إلى يوم القيامة زمانٌ يتعطل فيه عمل القرآن الكريم كنذير مبين لأعداء الإسلام، أو تفقد فيه آياته المنذرة قدرتَها على سحق قوة الأعداء وجعلِ المسلمين غالبين.

ثم إن عصا موسى عليه السلام كانت لا تُري الآيات إلا ما دامت في يده، أما القرآن الكريم فإنه لا يزال كتابًا حيًّا لكل مؤمن صادق مخلص أيضًا كما كان بالنسبة للنبي ﷺ، ولا يزال يعطي كلَّ فرد مخلص من أفراد أمته ﷺ نصيبًا من معارفه وعلومه بقدر إيمانه وإخلاصه كما كان يمدُّه ﷺ من معدنه بجواهر الحقائق والمعارف التي لا تُعد ولا تُحصى؛ ذلك لأنه نـــزل من الله الذي يعلم الغيب، والذي هو مطلع على أفكار الإنسان ومشاعره وعواطفه. إن أحدًا، مهما كانت خبرته واسعةً، لا يقدر على معرفة كل ما يختلج في قلوب البشر جميعًا من أفكار وخواطر وعواطف، إنما يقدر على ذلك مَنْ خلقهم، وهذا الخالق هو الذي يتكلم في القرآن الكريم، ولذلك يجد كلُّ إنسان في القرآن كل ما يحتاج إليه. نجد في الدنيا أن من الناس من يحتاج إلى الكتَّان من الأقمشة، ومنهم من يحتاج إلى الناعم منها، ومنهم من يحتاج إلى

السميك منها، ومنهم من يحتاج إلى الرقيق منها، ومنهم من يحتاج إلى الدافئ منها، ومنهم من يحتاج إلى الحرير والإستبرق منها. وعندما يخرج المرء من محل الثياب بعد شراء حاجته منها، فلا يكون في كيسه كل نوع من الثياب، وإنما توجد الثياب بكل أنواعها في المحل فقط الذي أقيم في القرية أو المدينة وفق حاجات الناس. وإنما مثل العالِم العادي كمثل شخص عادي يشتري الثياب، ومثل العالِم الكبير كمثل شخص ثري يشتري من المحل شتى أنواع الثياب بمقدار كبير وفق ضرورة أسرته، وستجد في أكياسه أنواعًا كثيرة من الثياب من ثوب رقيقٍ وسميكٍ وناعمٍ وحريرٍ وغيرها، ومع ذلك لن تجد في أكياسه كثيرًا من أنواع الثياب الأخرى، برغم أنه قد اشتراها بإنفاق آلاف الروبيات من المال. فلذلك كل من يطالع القرآن الكريم يغترف منه عقلُه بقدر حاجته، مهما كان ضئيل العلم، شريطة أن يحبّ القرآنَ الكريم، ذلك لأن مثال القرآن الكريم كمثال الدنيا التي تخرجون إلى غاباتها، ويقطع كل واحد منكم شجرة أو أخرى بحسب حاجته، ولكن لا تعرفون ماهية المعادن المدفونة في أرض تلك الغابات، كذلك فإن الذين يستوعبون معارف القرآن الكريم يمكن أن يكونوا مساعدين للآخرين في فهمه، ولكنهم لا يمكن أن يقوموا مقام القرآن الكريم؛ إنما القرآن هو الذي يقوم مقامه. إن أي إنسان، ولو كان أكبر مفسر بل لو كان نبيًا أيضًا، لن يكون إلا مؤيِّدًا ومعينًا للقرآن الكريم، ولكنه لن يقوم مقامه أبدًا؛ بل إن الإنسان الذي كان بنفسه القرآن – أعني محمدًا رسول الله ﷺ – أيضًا لا يمكن أن يقوم مقامه؛ ذلك لأن الأرض التي توجد فيها عنصر "اليورانيوم" – الذي تُصنَع منه القنبلة الذرية — أيضًا لا تدرك الدفائن الموجودة في بطنها، وإن الأمّ التي تحمل في بطنها جنينها تسعة أشهر أيضًا لا تعرف تماما قدراته وكفاءاته. إن القرآن قرآن، والإنسان إنسان. إن القرآن يظهَر لقارئه بحلّة جديدة عند كل مناسبة جديدة وضرورة جديدة وعاطفة جديدة وفكرة جديدة. إنه يقابل كل من يبحث عنه بلباس جديد، ويفتح لكل من يبتغيه بابًا جديدًا. فأَحِبّوا القرآن الكريم واعشقوه، وعَوِّدوا أنفسكم على التدبّر فيه، إذ من المحال أن يتولد في القلوب حب الله تعالى والروح الإسلامية الصادقة بدون التدبّر في القرآن. وقد

أشار مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام إلى هذه الميزة القرآنية نفسها في بيت شعر له بالأردية فقال:

پہلے سمجھے تھے کہ موسی کا عصا ہے فرقاں
پھر جو سوچا تو ہر اك لفظ مسیحا نکلا

(براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد ١ ص ٣٠٥)

أي كنا نظن من قبل أن القرآن الكريم يماثل عصا موسى حيث يمزّق بقوة أدلته وبراهينه ومعجزاته وآياته كلَّ الأحابيل التي ينشرها أعداء الإسلام كما التهمت عصا موسى ثعابين السحرة، ولكننا حين أعملنا الفكر وتدبّرنا مزايا القرآن الكريم بعمق أكثر، تبيّن لنا أنه أفضل من عصا موسى بملايين المرات، لأن عصاه إنما فضحت السحرة فقط والتهمت ثعابينهم، أما القرآن الكريم فلا يقضي على أعداء الإسلام كقائد نشيط محنّك فحسب، بل إن كل كلمة من كلماته تحيي الأموات وتنفخ فيهم الروح. وبتعبير آخر، عصا موسى لم تكسر إلا رأس العدو فقط، وقضت عليه قضاء روحانيًا فحسب، ولكن القرآن الذي أتى به محمدٌ ﷺ لا يُهلك الأعداء فقط، بل يهب لهم حياة جديدة، ويجعلهم من المقربين عند الله سبحانه وتعالى. وهذا يعني أنه لا يتميز بخصوصية دفع الشرّ فقط، بل يتميّز بميزة إيصال الخير على أتم وجه أيضًا، حيث يحيي الأموات.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الميزة القرآنية في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥)، فهذه الآية صريحة في أن القرآن الكريم قد جاء لإحياء الموتى. ولا شك أن العمل بالقرآن الكريم يجعل العُمْي يبصرون، والصُمّ يسمعون، والعُرْج يمشون، بل إنه يعيد الموتى الروحانيين إلى الحياة الروحانية ثانية. هذه هي الروح التي أحدثت الثورة في الجزيرة العربية، فإن الذين كانوا يسجدون للأصنام والجماد، ويستمتعون بارتكاب الفواحش بجميع أنواعها، أخذوا يعبدون الله وحده ويقدّمون رؤوسهم للذبح في سبيل الله كما تُذبح الشاة والمعز، وظلوا يزدادون حظوة وقربا عند الله سبحانه وتعالى.

إذًا، فلا قيمة لعصا موسى عليه السلام إزاء هذا الإنعام العظيم الذي ناله محمد رسول الله ﷺ والذي لا يزال يشكّل حتى اليوم برهانًا قاطعًا ضد أعداء الدين.

والآية الثانية التي أراها موسى عليه السلام في بلاط فرعون هي أنهم رأوا يده بيضاء نورانية. لا شك أنها آية عظيمة دلت على ما تبوّأه موسى عليه السلام من مكانة سامية من الطهارة وقرب الله تعالى، كما كانت إشارة إلى البركات التي كان ظهورها مقدّرًا على يده، ولكن الله تعالى قد فضّل النبي ﷺ على موسى في هذا المجال أيضًا؛ ذلك أن آية موسى عليه السلام هي أن يده ظهرت للناس بيضاء، أما محمدٌ ﷺ فقد سماه الله تعالى نورًا مجسّدًا، حيث بشّر الإنسانية بمجيئه ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾(النساء:١٧٥)، وقال ﷻ أيضا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾(المائدة:١٦). فترى أن الأشعة النورانية لم تسطع إلا من إحدى يدي موسى عليه السلام فقط، أما محمد ﷺ فقد اعتبره الله تعالى نورًا متجسدًا، ذلك لأن موسى عليه السلام إنما جاء لإصلاح بني إسرائيل فقط، بينما بُعث محمد رسول الله ﷺ لإصلاح العالم كلّه.

ومما لا شك فيه أن يد موسى عليه السلام بدت نورانية، ولكنها كانت يده هو في كل حال، أما محمد رسول الله ﷺ فقد اعتبر الله يده يدًا له، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح:١١).. أي أن الناس يرون في الظاهر أنها يد محمد، ولكنها في الواقع يد الله ﷻ.

وفي غزوة بدر رمى النبي ﷺ حفنة من الحصى، فهبّت ريح عاصفة أعمتْ عيون الكفار، وقال الله تعالى مشيرًا إلى هذا الحادث: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨).

وكان بياض يد موسى عليه السلام إشارة إلى ما سيتبوّؤه قومه من مقام عال في الطهارة والروحانية وما سيقدّمونه من تضحيات عظيمة في سبيل الدين. ونجد أن النبي ﷺ كان أفضل من موسى عليه السلام من هذا المنطلق أيضًا. لقد وعد الله ﷻ قوم موسى عليه السلام بأرض كنعان، ولما خرج بهم موسى من مصر ووصل إلى كنعان، قال لهم: هلموا حاربوا أهل هذه الأرض واستولوا عليها. فظن قومه خطأً أن الله تعالى ما دام

قد وعدهم بهذه الأرض، فهو الذي ينجز لهم وعده هذا ويضع هذه البلاد في قبضتهم، أما إذا فتحوها بالحرب فما الجدوى من الوعد الإلهي؟ فقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). فأغضبوا الله تعالى بقولهم، فأعلن الله تعالى: لن يدخلوا هذه الأرض الآن، بل سيظلون تائهين في البراري والفلوات أربعين سنة. ثم تُوفق أجيالهم فيدخلون هذه الأرض باذلين أرواحهم وينالون ما وعدهم الله به من النعم.

لقد منّ الله ﷻ على قوم موسى عليه السلام منّة عظيمة حيث رأوا بأم أعينهم آية ربانية عظيمة إذ قام بتحريرهم من عبودية فرعون وأنقذ أجيالهم من أعمال وضيعة كصنع اللَبِن وقطع الخشب، ومع ذلك رفضوا أوامر موسى عليه السلام إذ أمرهم بشن الهجوم على قوم عاد الحاكمين على أرض كنعان ليستولوا عليها، فقالوا: لا طاقة لنا بقتالهم، فاذهب أنت وربك فقاتلا، وعندما يهلك العدو ونأمن جانبه، سنأخذ زمام الحكم من أيديه. أما نبيّنا ﷺ فقد أعطاه الله أصحابًا لم يجيبوه قط بأننا لن نقاتل معك، بل قاتلوا عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن ورائه، مؤكدين صدق دعوى فدائهم له في كل موطن حرج. ورد في السيرة أن النبي ﷺ تلقّى بعد هجرته إلى المدينة خبرًا بأن أبا سفيان آتٍ من قبل الشام في قافلة تجارية محرّضًا جميع القبائل في طريقه ضد المسلمين. ولما كان طريق هذه القافلة يمر قريبا من المدينة فكانت جميع القبائل المقيمة حول المدينة تبيع وتشتري منها، وكانت تربطهم بها علاقات تجارية قوية. ولما علِم النبي ﷺ بأن أبا سفيان سيمرّ قريبًا من المدينة بهذه القافلة التي تحرض الناس على المسلمين، وأن أهل مكة قد خرجوا بجيش لحماية قافلتهم التجارية مخافة هجوم أهل المدينة عليها، استشار ﷺ أصحابه قائلا: لو بقينا في المدينة بدون حراك فإن العدو سيتجاسر علينا أكثر، فعلينا الخروج من المدينة كي لا يظن العدو أننا نخافه. فخرج ﷺ بجماعة من أصحابه من المدينة ووصل إلى بدر. وكان ﷺ يعلم بناء على الإشارات الإلهية أن جيشا للمكيين قادم وأن المسلمين سيشتبكون معه، ولكن لم يُسمح له ﷺ بكشف هذا الخبر السماوي لأحد؛ ولذلك لم يخرج مع النبي ﷺ إلا قليل من الناس، إذ ظنوا أنهم لا يخرجون للحرب وإنما لإلقاء الرعب في

قلب العدو. ولما وصل النبي ﷺ قريبا من بدر قرر كشف الحقيقة لهم، فجمع أصحابه وقال: أيها الناس، لقد أخبرني الله تعالى أن جيشًا للعدو قد اقترب، وربما نشتبك معه بدلاً من القافلة التجارية، فماذا ترون الآن؟ فأخذ المهاجرون يقف الواحد منهم تلو الآخر ويقول: يا رسول الله، إننا مستعدّون للقتال. ولكن الأنصار ظلوا صامتين، ذلك لأن الجيش القادم من مكة كان مشتملاً على أقارب المهاجرين من أخ وعمّ وخال وزوج أخت أو أخي زوجٍ وما إلى ذلك، فظن الأنصار أنهم لو قالوا للرسول ﷺ إنهم مستعدون لقتالهم، فربما يقول المهاجرون إنهم يريدون قتال أقاربهم، فالتزموا الصمت مراعين مشاعر المهاجرين وتكريمًا لهم إذ كانوا ضيوفًا عليهم. أما المهاجرون فكانوا يعبّرون الواحد تلو الآخر عن حماسهم للفداء والتضحية. ولكن النبي ﷺ ظلّ يقول في كل مرة: أيها الناس أشيروا عليّ. ولما أعاد ﷺ قوله هذا مرارًا قام أنصاريّ وقال: يا رسول الله، إن الناس يشيرون عليك ومع ذلك تعيد قولك: أشيروا عليّ أيها الناس! فربما تعنينا نحن الأنصار لنبدي رأينا؟ فقال النبي ﷺ: نعم، هذا هو قصدي. فقال الصحابي: يا رسول الله، لقد تعاهدنا في اتفاقية عقدناها معك وأنت في مكة بأن العدو إذا هاجمك في المدينة فسنحاربه معك، ولكنه لو حاربك خارج المدينة فلن نخرج معك للقائه إذ لا قِبل لنا بحرب العرب كلّهم؛ وربما تستشيرنا مرارًا بسبب تلك المعاهدة؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال الأنصاري في حماس شديد: يا رسول الله، عندما أبرمنا معك تلك المعاهدة، لم نكن نعرف مكانتك الحقيقية، فلم نر حرجًا في وضع هذه الشروط في المعاهدة. أما الآن فقد انكشفت علينا حقيقة الإسلام تمامًا وتبيّن لنا صدقك بكل جلاء، فكيف يمكن أن نشترط عليك بشيء؟ فلو أمرتنا الآن أن نخوض هذا البحر الذي أمامنا بخيلنا وركابنا لخضناه، ولو وقع القتال، يا رسول الله، فسنقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن أمامك ومن ورائك، ولن يخلص إليك العدو الذي هو أكثر منا قوة وعددًا إلا على جثثنا الهامدة. (البخاري: كتاب المغازي، باب قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾، والسيرة النبوية: غزوة بدر الكبرى)

هذا هو النموذج الذي قدّمه الصحابة. ثم إنهم لم يدّعوا الإخلاص والفداء بأفواههم فقط، بل بالفعل قدّموا تضحيات جسيمة في سبيل الإسلام ليل نهار، ضاربين أروع الأمثلة للفداء. حتى اضطر السير وليام موير أن يقول في كتابه حياة محمد (ﷺ) لقد جاء الكافرون عند غزوة الأحزاب بجيش عرمرم كانت هزيمة المسلمين أمامه أمرًا مؤكدًا، ولكن لم يحالفهم النصر رغم كثرتهم لأنهم ارتكبوا خطأ تكتيكيا، وهو أنهم كلما عبروا الخندق حاولوا، لغبائهم، التقدمَ إلى خيمة الرسول ﷺ الذي كان صحابته يفدونه بأرواحهم ومهجهم، فكلما رأوا أن الكفار يريدون الهجوم عليه حالوا بينه وبينهم ذكورًا وإناثًا وأطفالا كالمجانين، فكان الكافرون يضطرون للانسحاب في كل مرة. ولو أنهم لم يرتكبوا خطأ التوجه إلى خيمة محمد ﷺ لانتصروا في غزوة الأحزاب.

قصارى القول إن الصحابة قد ضربوا أمثلة رائعة للحب والفداء للنبي ﷺ ولا قيمة إزاءها لما فعله قوم موسى عليه السلام. فثبت أن اليد البيضاء لمحمد ﷺ كانت أفضل من اليد البيضاء لموسى، وأن عصا محمد – أي القرآن الكريم – هي أفضل من عصا موسى من كل النواحي.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَن
تُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوٓا۟
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ

مَّعۡلُومٖ ﴿٣٩﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

أَرْجِهْ: أرجهَ الأمرَ: أخَّره عن وقته. (الأقرب)

ميقات: الميقات: الوقت، وقيل: الوقت المضروب للشيء؛ والموعد الذي جُعل له وقت، وقد يستعار للموضع الذي جُعل وقتًا للشيء. (الأقرب)

التفسير: لقد رأى فرعون آية العصا واليد البيضاء، ولكنه كان جاهلا بعلوم الدين، فلم يدرك أن هذه الآية إنما هي كشف رآه الآخرون أيضًا، بل ظنّ أن موسى ساحر ماهر، والساحر لا يكون إنسانا ربّانيا، فظن فرعون أن وراء هذا السحر هدفًا وغرضًا وهو أن موسى يريد بقوة سحره أن يخرجه وقومه من أرضهم. ولم يفكّر هذا الغبي أن موسى قد سبق أن قال له قبل قليل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ فما دام موسى عليه السلام يريد أن يذهب ببني إسرائيل من مصر، كيف يمكنه أن يخطط لطرد معارضيه من مصر؟ فكلا الأمرين ضدّان لا يجتمعان. ذلك لأن بني إسرائيل لو خرجوا من مصر لصار المصريون أكثر قوة وأرسخ قدمًا. فشتان بين أن يخرج موسى ببني إسرائيل من مصر وبين أن يطرد المصريين منها؟

ولكن يبدو أن حاشية فرعون كانوا لا يزالون في وعيهم، فعلموا أن الملك يهذي في كلامه لأن كلام موسى يدل على أنه ينوي الخروج بقومه من مصر، وليس أن يُخرج المصريين منها، فقالوا لفرعون: أيها الملك، أَمْهِلْ موسى وأخاه بعض الوقت، وابعَثْ رجالك لإحضار كبار السحرة كلهم؛ فإذا كان ساحرًا لا نبيًا صادقًا، سيلقى الهزيمة على أيدي السحرة وسينكشف بطلان دعواه. فتم الإعلان، وجُمع السحرة، وقيل للناس: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

هذه الجملة تكشف لنا العقلية المتدنية للكافرين. فبما أن قلوبهم تخلو من خشية الله فلا يستعدّون لتصديق النبي في أي حال، ولكن لو حقق أحد من معارضيه

النجاح القليل يستعدّون لاتّباعه. وقد أشار الله ﷻ إلى العقلية المتدنّية لقوم فرعون في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(هود:٩٧-٩٨).. أي لقد أرسلنا موسى إلى فرعون وأعيان قومه بالآيات البينة والبراهين الواضحة، ولكنهم أطاعوا فرعون بدلا من أن يطيعوا موسى. لم يكن تعليم فرعون يرشد إلى الصواب بل كان يدفع إلى الضلال إلا أنهم اتَّبعوه، رافضين قول من يهديهم إلى الصواب.

وهذا هو دأب الكافرين للأسف منذ البداية. فلما بُعث النبي ﷺ وعرض تعليمًا يهدي إلى الرشد والنجاح، رفضه أهل وطنه، واتبعوا أبا جهل الذي كان يمثل فرعون في زمنه راضين بتعليمه الذي كان ينشر كل رجس وفساد ورافضين ما يقدمه الرسول ﷺ من تعاليم سامية.

وهذا ما حصل بعده ﷺ أيضًا، فلما صار أبو بكر ﷺ خليفةً صدّقه الصحابة، ولكن سائر العرب بغوا وطغوا، واتبعوا سبيل أبي جهل وأعوانه، وأطاعوا فراعنة زمانهم من المتنبئين كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح الكاهنة، تاركين الخليفةَ الحق للرسول ﷺ والذي كان قادرًا على أن ينفخ في الناس روح الإسلام الصحيحة. (البداية والنهاية: كتاب تاريخ الإسلام الأول من الحوادث... سنة إحدى عشرة من الهجرة)

ثم لما اختار الله عمر ﷺ خليفة لرسوله ﷺ حصل نفس الشيء. فحينما ذهب عمر للحج قبيل وفاته أخذ بعض الناس يقولون: سنختار بعد وفاته فلانًا خليفةً، ولن نبايع أحدًا سواه. ولما صار عثمان ﷺ خليفة وفق المشيئة الإلهية، قام عبد الله بن سبأ - وكان مصريا مثل فرعون - ببثّ الفتنة فتبعه الناس (تاريخ الطبري: سنة خمس وثلاثين).

ثم لما انتُخب علي ﷺ خليفة سلك الناس نفس المسلك الخاطئ. لقد انتخبوه خليفةً أوّلاً، ثم ثاروا عليه بناء على حجة واهية داحضة وهي تصالُحه مع معاوية، واشتهروا باسم الخوارج، واستمروا يثيرون القلاقل ويخلّون بأمن البلاد طيلة قرنين من الزمان.

ولما انقضى زمن طويل على بعثة النبي ﷺ بعث الله أولياءه في الأمة، فسلك الناس نفس المسلك الخاطئ، فلم يستمعوا لهؤلاء العباد الأطهار، بل اتبعوا أعداءهم الذين كانوا فراعنة زمنهم. فقاموا بمعارضة حضرة معين الدين التشتي، وحضرة قطب الدين بختيار الكعكي، وحضرة نظام الدين أولياء، وحضرة خواجه فريد الدين غنج شكر -رحمهم الله تعالى. وعندما ظهر حضرة سيد أحمد السرهندي همس معارضوه في أذن الملك المغولي "جهانغير" أنه يريد التمرد على ملكه، ولا بد له من التصدي له وإلا ستكون في البلاد فتنة كبرى. فألقاه الملك "جهانغير" في السجن في قلعة "غواليار". فقال له البعض إن هذا الإنسان من الصلحاء الكبار، فالأفضل إطلاق سراحه، فعاد الملك إلى صوابه وأفرج عنه.

إذًا، فمنذ أن بدأ الله تعالى ببعثة الأنبياء والخلفاء، كان الحق عرضةً للمعارضة والعداء. وكانت فكرة المعارضة نفسها مسيطرة على قلوب وعقول فرعون وأكابر قومه، فإنهم لما جمعوا الناس لم يقولوا لهم: سنتبع موسى إذا غلب السحرةَ، بل قالوا: سنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، برغم أنه كانت هناك إمكانية لانتصار موسى وهزيمة السحرة. فكان بوسعهم أن يقولوا: سنتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وسنتبع موسى إن كان هو من الغالبين، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اكتفوا بقولهم: سنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وهكذا دلّوا على ما يضمرون في قلوبهم من بغض وعناد، مؤكدين أنهم لا ينشدون الحق، وإنما ينشدون رضى فرعون، ولهذا فقط كانوا يريدون إقامة هذه المناظرة.

وجمعُهم السحرةَ لمواجهة نبي عظيم كموسى عليه السلام يشكّل دليلاً على أن بداية أنبياء الله تعالى تكون متواضعة جدًا. كان موسى عليه السلام نبيًا من عند الله تعالى بعَثه لدعوة فرعون، ولكنه احتقره لدرجة أنه دعا السحرةَ لمبارزته. فشتّان بين ما كان عليه موسى عليه السلام حينها وبين ما تتمتع به أُمّته اليوم من قوة ومنعة، حيث تخاف سخطها دول كبرى؛ حتى إن قوة عظمى مثل أمريكا تضطر لدعم الأمّة اليهودية التي قد تمكنت من تأسيس حكومتها على أرض فلسطين. أما في ذلك الوقت فكان موسى عليه السلام ضئيل الشأن لدرجة أن فرعون قد أتى بالسحرة لمواجهته. فلو أن

الهندوس أو المسيحيين أتوا اليوم بساحر لمواجهة أحد علماء المسلمين لأقاموا ضجة بأنه قد أُسيء إليهم، ولكن موسى عليه السلام لم يرفض اقتراحهم بل استعد لمبارزة السحرة أيضًا لعل القوم يهتدون بهذا الطريق. وعندي أن فرعون لو أُعيد إلى الحياة اليوم لحسب نفسه إزاء موسى عليه السلام أذلَّ من قرد، ولأخذته الدهشة حين لا يجد لنسله أثرًا في الدنيا، ويجد قومَ موسى عليه السلام حاكمين على فلسطين.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٣﴾

التفسير: إن قول السحرة هذا يدل على البون الشاسع بين طبيعة النبي وغيره من البشر. فإن كل ما سبق من كلام موسى عليه السلام يكشف بوضوح أنه كان يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى ربُّه وربُّ الكون كله، وكان لا يعقد أية آمال بأي إنسان. أما السحرة الذين جمعهم فرعون للتصدي لموسى، فكانت طموحاتهم متدنية وهممهم منحطة بحيث إنهم ما إن دخلوا بلاط الملك حتى قالوا: جلالة الملك، هل لنا من أجرٍ إن كنا نحن الغالبين؟

علمًا أن المعنى نفسه قد ورد في سورة الأعراف أيضًا ولكن بشيء من الاختلاف في الأسلوب، حيث قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾(الأعراف:١١٤). بينما قالوا هنا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾. ولو تدبرنا الموضعين وجدنا أنه ليس ثمة اختلاف في الواقع. لا شك أن الجملة هنا استفهامية، ولكن الاستفهام لا يعني أنهم كانوا يشكّون في نيل الأجر، إذ يفيد الاستفهام التوقعَ أحيانًا، بمعنى أن الأجر يكون مؤكدًا ومع ذلك يقول المرء: هل لي من أجر؟

فأجابهم فرعون على سؤالهم عن الأجر وقال: نعم، سأكافئكم حتمًا، بل سأجعلكم من المقربين.